مركز الوجدان الحضاري
WIJDAN CULTURAL CENTER

النسق القرآني ومشروع الإنسان
(نحو قراءة قيميّة راشدة)

@wijdancenter

www.wijdancenter.net

مركز الوجدان الحضاري
WIJDAN CULTURAL CENTER

@wijdancenter

www.wijdancenter.net

النسق القرآني ومشروع الإنسان

(قراءة قيمية راشدة)

الفهرس:

- مقدمة
- تمهيد
- الفصل الأول: قصة الخلق

  منزلة الإنسان في الوجود
- الفصل الثاني: فاتحة الكتاب

  مهمة الإنسان في الوجود
- الفصل الثالث: الأبعاد الثلاثة

  الإيمان، الصلاة، الإنفاق
- الفصل الرابع: متطلبات العمران

  العمل الصالح ونماذجه
- الفصل الخامس: النسق الكلي للعيش البشري

  قيم العيش المشترك
- الفصل السادس: نموذج الدوائر الثلاث

  العقائد، التقريرات العامة، الحقوق
- الخاتمة

مقدمة:

التروس الصغيرة في الساعة لا تسمى ساعة، وهي تكتسب معناها في نظام الساعة لا خارجه، ولا معنى للجزء بدون سياقه الكلي.

نعمتان يُساء استخدامهما: العقل والدين، فالبعض يستخدمهما؛ ليزداد سمواً، والبعض ليتحلل من مقررات الأخلاق. العيب ليس في الأداتين، لكن في غلبة الشهوات على الإنسان؛ حيث يستطيع تبرير انحلاله من عري الأخلاق بأي منهما. ففي فضاء العقل متسع، وفي الحيل الدينية متسع، وفي كل الأحوال هي تعبير عن غلبة الشهوات.

الشهوات ليست بالضرورة - كما يتبادر للعقل - شهوة البطن والفرج فقط، إنما هناك ما هو أخطر: كشهوة التسلط والتجبر، المال، المنصب، الظلم، الانتقام، الحسد، الكراهية والاستعلاء وفي كل تلك الحالات ينحرف القلب عن الصراط وتضيع البوصلة.

إن الضلال قد يأتي بسوء المنهج وطرق التفكير، وقد يأتي بسوء الطوية وانحراف القلب، فالشرق اتبع آباءه وسادته فضل وأضل، والغرب اتبع سادته وكبراءه فضل وأضل أيضا؛ لذلك وصَفْنا الغرب في قرونه الوسطى بالظلام، وكذلك الجاهلية قبل الإسلام، وفي كلتا الحالتين كان منهج الفكر والتلقي مختلا في مسلماته ونتائجه، فأورث جهالة استمرت مئات السنين. وانحراف القلب كثيرا ما كان سببا في إضلال الأفراد والجماعات، وسببا في ابتعادهم عن قبول الحق بعدما استبان لهم؛ لذلك يعتبر فساد المنهج وفساد القلب آفة الآفات في كل عصر، واختلالهما طريق الهوان الإنساني. والحل يكمُن في مسألة الوعي بالاتجاه الفكري، والفهم السوي لغايات الدين السامية، ممهدة بذلك لوعي ذاتي لمطلب الدين نحو التسامي الإنساني، ووجود الصورة الكلية التي سنحاول أن نرسمها في هذا البحث كمحاولة لضبط المسار.

كل ما سنذكره في الكتاب هو محاولة لفهم الدين، تقابلها محاولات ذات طابع فقهي، فلسفي، صوفي أو سلفي، إضافة إليها المحاولات التي تؤدلج الدين، وكلها تُنتج أنواعا مختلفة من التدين؛ لأن النص الذي يغلب عليه الدلالة الظنية سيسمح بهذه القراءات المتعددة. ومن حق جميع المحاولات أن تعرض نفسها على العقل المسلم؛ لأنها جميعا عبارة عن محاولات سمح بها النص، لكنها ليست الدين ذاته، وليس أي منها هو مراد الله على وجه اليقين.

ما ينبغي التنويه عليه هو أن على القارئ أن يعرف بأن النص يُستنطق من خلال المنهج الذي هو نحت بشري، ونحن في مقاربتنا ومنهجنا هنا سنبتعد عن تجزيء القرآن، وذلك عبر دراسته كنسق متكامل يخدم بعضه البعض أو على الأقل هذا ما نزعم أننا سنحاوله.

لقد عنونا هذا الكتاب بـ **(مشروع الإنسان – النسق القرآني: قراءة قيمية راشدة -)**، ونقصد به فهم الإسلام من خلال تبيين معالم نسقه القيمي، وجعل هذا الأخير مرجعا تندرج فيه

كل التفصيلات وترجع إليه.

دعوى الكتاب تقوم على أنه حين افتقدنا النظرة لنسق قيم الدين، واختلت مفاهيمه الكبرى، واختلطت دوائر فعل النص؛ فقد الدين فاعليته، وأصبح جزء من المشكلة بدلا من أن يكون جزء من الحل، حيث أن الاستدعاء الفردي للنصوص من غير النظام الكلي الذي تشتغل عليه النصوص هو سبب أساسي في إشاعة الاضطراب في كل أوجه الحياة داخل البيئة الإسلامية إلى حد التناقض المفضي للهلاك، فما كان صالحا من بساطة الرؤية في البدايات، لم يعد مجديا في عصر التعقيد والبيئات المفتوحة.

من خلال هذا الكتاب، نطمح إلى أن نطرح رؤية للدين من زاوية النسق القيمي العميق، بحيث تتساند القيم في صناعة التصور دون تشتت تضيع معه الصورة الكلية. وما أتمناه في بحثي هذا؛ أن يرى القارئ معي قيمة النسق، وأن يجده حريا بالتبني، بديلا عن النظرة المجزأة للدين؛ لتختفي تلك الاستدعاءات المجتزَأة، والتي وصفها القرآن بـ «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض»، و»الذين جعلوا القرآن عضين»، فالحالة التجزيئية أشبه بشخص يشتري قطع السيارة من أصغر جزء إلى أكبر جزء بطريقة منفردة، ويعتقد أن لديه سيارة. إن الفرق شاسع بين السيارة في كلها المركب، وبين أجزائها عندما تكون منفصلة، فهي لا تسمى سيارة إلا إذا شُكلت وحدة واحدة، أما أجزاؤها فهي لا تعدو أن تكون أجزاء وقطع. إن استبدال المنظور الشائع والمجزأ بمنظور كلي متماسك ليس بالأمر اليسير، لكنه المستقبل، وبدونه سيكون فشل محقق.

في هذا الكتاب سنبحث عن النسق الأكبر الجامع فقط دون استعراض للأنساق الصغرى التي تنتظم فيه مثل: نسق الجبر والاختيار، النسق الذي تستدعى فيه سنن الله في الكون والأنفس، النسق الذي تستدعى به التزكية وقضية الحرب، نسق قضية المرأة.

لقد تضمن بحثنا هذا المقدمة: وتتحدث عن السياقات العامة لمحتوى الكتاب، ثم أتبعناه بتمهيد عام: حول ماهية القيم، النسق وأهميته، وأثر غيابه في الدين الواقع. ثم بفصل أول: يتحدث عن منزلة الإنسان في الوجود. فصل ثانٍ: تناولنا فيه الأمانة التي حملها الإنسان. ليتبعه فصل ثالث: تطرقنا فيه إلى بيان الأبعاد الثلاثة الأهم في مشروع الدين. ثم فصل رابع: يتمثل في أبعاد العمل الصالح. ثم فصل خامس: ذكرنا فيه نسق العيش الإنساني المشترك. وأخيرا فصل سادس: كان حول تداخل الدوائر الثلاث، وهي: الاعتقاد، والمقررات العامة والحقوق. ثم خاتمة.

تمهيد:

إن دراسات القيم تأخذ أشكالا عدة: مثل دراسة ما وراء القيم، والقيم المعيارية والوصفية والتطبيقية، ونظم القيم التي منها نظرية الأمر الإلهي. في بحثنا هذا سندرس منظومة القيم الإسلامية من حيث هي نسق أو نظام مركب يعمل في نسق تتكامل أجزائه ومفرداته، وهو ما سنحاول أن نشرحه في هذا الكتاب مبينين خطورة الاستدعاء الجزئي.

القيم هي عناوين ذهنية تكون معيارا للتفضيلات السلوكية، فعندما تتحدد مفردات هذه السلوكيات - بحسب كل ثقافة أو حتى بالنسبة للفرد نفسه - وتتحول إلى قالب مرجعي؛ تكون قد تحولت لمفهوم في الذهن «قيم». وحينما يُقر الإنسان الالتزام بها؛ تتحول إلى مبدأ، عندها تنتقل وتتحول على شكل سلوك خارجي؛ لتصبح خُلقا له. أما الأفكار فهي كل ما يجول في العقل. والمعتقدات هي ما جزم العقل بصحته سواء بالدليل أو بغيره.

إن المتأمل في القرآن الكريم يجد أنه يركز على محورين أساسيين للتغيير الاجتماعي: مركبي الإيمان والأخلاق، ويجعل مساحة الأخلاق هي أساس التعبير عن الإيمان.

الايمان هو تصور عقلي مؤثر في الالتزام القيمي. وتغيره هو قرار ينتقل به الإنسان من معتقد إلى آخر. إنها معركة تدور في العقل، كما أنها نقطة البداية لمشروع الدين. وقد أولاها القرآن عناية كبيرة في سور كثيرة؛ لأن كسب معركة المقدمات الفكرية[1] هي بداية التغيير الكبرى؛ حيث أن صناعة المجتمعات هي قضية مرتبطة بالقيم، وصراع معقد يومي بين مصالح الإنسان الآنية ومواقفه المبدئية.

إذا كان القرآن نسقاً يوظف البشارة والنذارة، القصص التاريخية والحدث، فنون اللغة كالإيجاز والاستفاضة بغرض تحريك الإنسان نحو الاستجابة الاختيارية، والإيمان الدافع للصلاح والإصلاح؛ فإنه قد شَرَع العبادات والطقوس الدينية؛ لتكون رافعة لتحقيق غايات أسمى في التحول النفسي للمتلقي، وقد عرض أعمال الصالحين؛ ليُقيم بها نُظم العمران، كما شرّع العقوبات؛ ليرسم طريقا لحماية المجتمع من الظلم والعدوان. إن كيان القرآن الكلي هو إقناع واستدلال متنوع الأساليب، وهو يتحرك نحو تأكيد غاياته الكبرى. على الرغم من كل ذلك، إلا أنه يجب أن لا يحول دون رؤية النسق القيمي الحاكم للمنظومة؛ فبدونه تتجزء الصورة وتفقد معناها.

---

١ هي قبليات مفاهيمية تسبق استنتاج الأحكام الفقهية، فمفاهيم مثل: مشيئة الله في جعل البشر مختلفين وتقرير أن كرامتهم الوجودية محفوظة لكونهم بشر ينعكس على كل اجتهاد فرعي متعلق بالتعايش والحقوق.

إن معاني كلمة **النسق** في معاجم اللغة العربية لا تفي بالغرض المراد هنا، فهي تدل على النمط الواحد، أوعطف الأشياء على بعضها؛ لذلك سأضطر إلى ذكر الكلمة الإنجليزية المرادفة لبيان الفرق. النسق = **System**: الذي هو: **نظام مكون من أجزاء، وتضبطه آليات تحكم.** على سبيل المثال: إذا اعتبرنا النظام الاجتماعي نسقا، فسنقول بأنه: مجموعة متساندة من العناصر الثقافية والبنيوية التي تتفاعل؛ لتؤدي وظيفة حفظ الوجود والاستقرار والنماء لكل المجتمع. فإذا وُجد أن النظام الاجتماعي لا يحقق للإنسان تلك المتطلبات؛ سنجد النظام يقوم بإعادة ضبط نفسه حتى يحافظ على ذاته. بطريقة أخرى: هناك مطالب أساسية لعامة البشر المكونين للمجتمع يقومون بإدخالها على النظام الذي يعيشون فيه، وهذا النظام يقوم بعملياته؛ لتوفير تلك المتطلبات، وعبر التغذية الراجعة تكتمل الدورة وتنضبط المعالجة، وحينما يتوقف نظام التحكم عن العمل؛ ينهار البناء ويتعطل. وهذا ما يحصل عندما تنهار المجتمعات وتخرج عن حركة التاريخ؛ بسبب عجزها في إصلاح النظام.

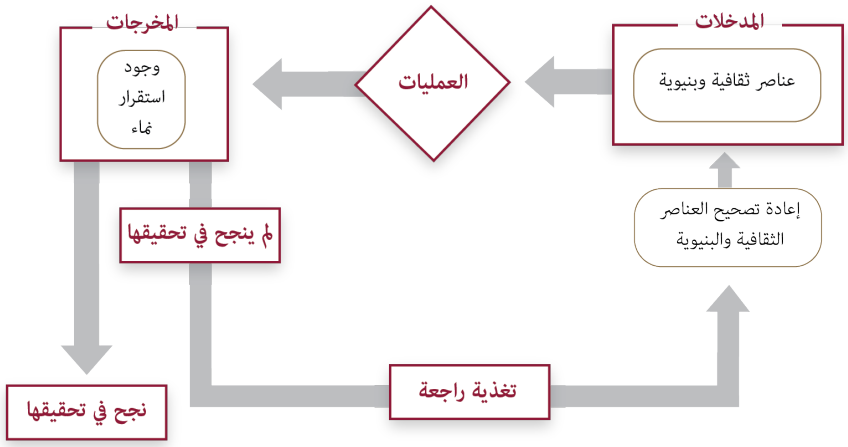

(نموذج ١ / النسق - النظام الاجتماعي)

الدين شيء وفهم الدين أمر آخر، الأول: هو النص الديني المحفوظ، والثاني: هو التدين الذي قد يكون عرضة لكل أنواع الخلل، فهو تصور عن الدين قد يقترب أو يبتعد عن مضمونه بقدر جودة منهج استدعاء الدين في حياة الفرد والمجتمع.

حال غالبنا اليوم مأساوي، فمع غياب النظرة النسقية لقيم الدين عبر غياب دوائر عمل النصوص، وتقزم المفاهيم، واضطراب السلوكيات؛ نصف الدين بالكمال، ونعتقد أننا نمثله في الواقع، لكن أبسط تصوراتنا عن الدين تنهار عند أول تجربة. بعد كل ذلك لا غرابة أن يكون حال العالم الإسلامي على ما نحن عليه.

إننا نكتشف باستمرار أن مقولاتنا عن الدين وكماله لا تصمد عند التجربة، ونكتشف أن

تديننا - فهمنا للدين - هو الذي ينهار، فأكبر مقولات القرن المنصرم من الإسلاميين مثلا تقوم على فكرة بسيطة، وهي أن وحدة الأمة لا تقوم على القومية ولا الإشتراكية ولا الليبرالية، إنما الإسلام وحده هو القادر على وحدة الكلمة، ولكن في الواقع؛ انهارت كل التجارب الوحدوية بين المسلمين. فعلى سبيل المثال: باكستان انفصلت عن الهند؛ لتصنع وحدة بين المسلمين الهنود، لكنها سرعان ما انفصلت هي الأخرى إلى دولتين إضافيتين فقامت إلى جوار باكستان دولة أخرى سميت بنجلاديش. وعلى الرغم من ذلك؛ لم نعتبر، بل استمرت المقولة، وجاءت تجربة الجهاد الأفغاني، والمجاهدون حينها هم أبناء المشروع الإسلامي، ومن أعلى درجات السلم التعليمي، وكان ما كان من تمزقهم واقتتالهم، وعجزوا عن التجمع والاجتماع وقطف ثمار التجربة، بل انفض الناس عن مشروعهم من غير دراسة ذات معنى تنفذ إلى السؤال الجوهري (لماذا فشلوا؟). ومن ثم توالت التجارب تباعا في الجزائر، السودان، الصومال، ليبيا، سوريا وفي مصر. ولم يُطرح السؤال الحقيقي بعد أيضا (لماذا فشلوا؟).

لم يكن الأمر بعيدا بهذا القدر حتى يحتاج لكل هذه الرحلة الطويلة، فتلك الحقيقة قائمة من قبل هذه التجارب، فالمجتمعات الإسلامية متخلفة عن العصر بسنوات بعيدة، والإسلاميون أحزاب وجماعات متحاربة، والأحزاب القومية والشيوعية كذلك، والموضوع ليس بالبحث عن الفاشل؟ بل بطرح الأسئلة الفاعلة: ما هو النسق الذي يحمله هذا الطرف أو ذاك عن الحياة وعن القيم؟ وما درجة اتساقه؟ الكل يُصدر في بياناته نداء «واعتصموا»، فأي معنى لهذا الاعتصام؟ وما الذي يعطل فاعليته في حياة الأمة؟ وما هي الأمة؟ هل هي بالمعنى السياسي والاجتماعي؟! كيف يمكن قراءة النسق المتكامل في ظل القرآن؟ وهل من الممكن تجسيد الآليات التي جاء بها القرآن وتعاليمه في ظل ماهو معاش؟

إذا أقررنا بتلك الأسئلة؛ لن نجد عناء أن نعرف أنها وليدة نسق قيمي مساند كالتفكر والفهم، الإيمان بنسبية المعرفة، القدرة على تنظيم المصالح وترتيبها، القدرة على التفريق بين الاستراتيجي والتكتيكي، القدرة على التفريق بين التهديد الوجودي والتهديد البسيط، القدرة على التفريق بين الممكن والمستحيل، الإيمان بالعمل من داخل سنن الله لا من خارجها، وتغليب المصلحة على هوى النفس. عندها سنكون مضطرين إلى مراجعة منظوماتنا القيمية التي حكمت تجاربنا، ومراجعة أنساقها لا جزئياتها. فالقيم لا تعمل منفردة في فراغ، بل سنجد أن فكرة الاعتصام الموحد تحتاج إلى نسق كامل من القيم المتساندة؛ لتتحول إلى حقيقة قائمة، وإلا كانت النتائج في كل مرة هي ذاتها.

إن تعلم التفكير في الأنساق ليس أمرا هينا في بيئات ألفت الاستدعاء المجزأ للنصوص الدينية، واختلت فيها المفاهيم اختلالا كبيرا حتى انقلبت للضد، فمثلا لو نظرنا في مفهوم مثل الجهاد الذي وظيفته في المجتمع الإسلامي هي حفظ المجتمع من العدوان الخارجي، وحفظ حق الدعوة وحرية اختيار البشر، ومن ثم تساءلنا: كيف تحول في تطور تاريخي معين إلى سلاح لقتل الذوات؟ إنه انتقام الأفكار لذاتها؛ فعندما يخون مجتمع ما قيمه، ولا يحافظ على مضمونها، ونطاق عملها، والنسق الذي تعمل فيه؛ تنتقم منه بطريقتها، وتخلق أضدادها، وبمثل هذه الأسباب

تنهار كثير من المجتمعات.

الفصل الأول: قصة الخلق

ما هي منزلة الإنسان في الوجود بعيدا عن لونه، عرقه ودينه؟ ما مهمته؟ ما الأدوار التي تنتظر منه؟ وما الذي يعترضه؟ إن فهم ذلك كله هو وليد لحظة خلق هذا الإنسان:

«هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34)وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) (".

الدلالات الكبرى التي تثيرها لحظة البدء:

1-«خلق لكم ما في الأرض جميعا»: تصف لنا وضعية الإنسان في الأرض، فكل شيء خلق وهيئ له.

2-«إني جاعل في الأرض خليفة»: هذا المخلوق الجديد سيتعاقب على الأرض.

3-«أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء»: رهانات كبرى بدأت مع لحظة ولادة الإنسان، فهل يستطيع أن يوقف الفساد وسفك الدماء؟

4-«وعلم آدم»: ها هو الإنسان في انفتاحه على العلم وقابليته التي ستجعله أهلاً لسُكنى وعمران الأرض.

5-«اسجدوا لآدم»: السجود كان إشعارا ورمزية لتكريم آدم في الملأ الأعلى.

6-«إلا إبليس أبى واستكبر»: هكذا اتسع الملأ الأعلى للمخلوقات المختلفة، ملك طائع، وشيطان مارد، وإنسان بين بين.

7-«فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم»: عصى آدم ربه مرة، فأكل من الشجرة، وتاب الله عليه وأخبره أنه كثير التوبة.

8-«فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون»: توحي هذه الآية بأن الإنسان مخلوق خاضع للاختبار.

ها هو الإنسان أمام الامتحان، مزود بقابلية العلم، الإرادة التي أهلته للأمر الأول، معرض للاختيار الخاطئ، موعود بالمغفرة المتكررة، له عدو يعرفه، وهو على أرض أعدت له.

الموجهات الكبرى للنسق القيمي الأعلى تتبدى في هذا المخلوق الجديد «الإنسان»، وهي: الاستخلاف والتسخير «وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون»، وقبول حمل الأمانة «إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين ان يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا»، من خلال سياق الآيات سنجد بأن الأمانة هي مسؤولية الإيمان وتبعاته، وقابلية التعلم والزيادة في العلم «وعلم آدم»، معرض للابتلاء بالدنيا، ومطلوب منه أحسن العمل «ليبلوكم أيكم أحسن عملا»، كائن مكرم «ولقد كرمنا بني آدم» وهو كائن مخير «إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا».

ولنرتبها بشكل يسمح برؤية التتابع:

الاستخلاف، التسخير، حمل الأمانة، العلم، الابتلاء بالدنيا، أحسن العمل، الكرامة الإنسانية والاختيار، ولنعالجها بشكل يسمح برؤية العلاقات البينية، ومعرفة تبعاتها العملية.

فكرة حمل الأمانة: مربط الفرس في فكرة الدين، والأسئلة التي تطرح هنا: ما طبيعة هذه الأمانة؟ لماذا الإنسان؟ ما طبيعة التحدي الذي يواجهه؟ ما هي الملكات التي زُود بها؟ ما علاقتها بالموضوع؟ ولماذا هو كائن مكرم؟

من الواضح أن الأمانة هي التكاليف المنوطة به من قبل الله عز وجل، إيمان، عبادة، إعمار للأرض، ووقف لسفك الدماء والفساد. والرواية لا تخبرنا لماذا يريد الله اختيار الإنسان، ولا عن أهمية ذلك الموضوع في خطة الكون، بل تتجه مباشرة لتخبر الإنسان أن هذا الاختبار (الابتلاء) متعلق باختيارات الإنسان الذي أعطي حق الاختيار، ومطلوب منه أن يقدم أحسن العمل. وهي صيغة تفاعل بمعنى أن هناك سباقا في الجودة في الأعمال، وأنه مزود بأهم أداة لتحسين القرارات والأعمال، وهي القدرة على التعلم والارتقاء المعرفي.

في القصة إشارة عميقة لمظاهر التكريم؛ حيث أن الكون صنع على شاكلته، وسخر له، بمعنى أنه متضمن لفعل الإنسان، تعقلا وكشفا وتحكما وتلك معالم المشهد الأول.

الحرية:

الإنسان وُجد لغايات معينة وتم توجيهه لها، وخلال إدراكه لها تستقيم تصوراته وتصلح وجهته، وهي غايات أسست على تكريم الإنسان بإعطائه **(حرية الاختيار) و(مسؤولية المصير)** التي تعتبر شيئا داخليا، لا يمكن سلبه بالإكراه، فالإكراه الظاهر لا يغير من اختيارات الضمائر «إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان» إنها تجربة الإنسان الذاتية واختياراته التي تصنع مصيره؛ حيث سيُعرض على الله فردا بسبب تلك الحرية المعطاة له، ولن يستطيع أن يعتذر بالجهل وبقواعد خطة المصير[٢]. إن المسؤولية الفردية عن القرار هي مسؤولية كبرى! تَهُدُّ الجبال، ولا يخفف من وطأتها إلا قواعد الحساب «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها»، «ولا يظلم ربك أحدا».

ونظرا لأهمية مصطلح الحرية فقد كانت عليه تأكيدات متكررة في القرآن «فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر»، «وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد»، «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ۗ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ».

فحرية الاختيار حق وجودي أصيل أُعطي للإنسان في أخطر مسائل وجوده وهو الإيمان، فكيف بما دونه من مسائل الحياة؟ ومشروع الدين في حياة الناس ليس شكليا ظاهريا، بل هومشروع غائي لتحقيق مهمة الإنسان في الأرض. وأمثلة هذا الخطاب الغائي في غاية الأهمية، ومن تمثلاته ما يلي:

رؤية الصورة الكبرى: هي نقطة البداية لمشروع الدين في حياة الإنسان، وتركيز العقل في استحضار الوسيلة دون إدراك الغاية والتفكر فيها؛ تعتبرغفلة كبرى عن مراد الله عز وجل، والقرآن كتاب يدق أجراس الخطر للبشرية الغافلة عن المعنى الأكبر للحياة. إنها ليست حياة واحدة بل أكثر من ذلك: في عالم الذر، في الأرحام، في الحياة الدنيا، في القبر، وبعد البعث.

إن وجود الإنسان مقصود من ذات عليا متصفة بالكمال والجلال لمهام محددة: إعمار الأرض بالعمل الصالح «آمنوا وعملوا الصالحات»، «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون». وقف الفساد وسفك الدماء «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر»، «ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها»، إقامة العدل بين البشر «وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط»، نشر الرحمة في الوجود «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»، إن الإنسان مكلف بتلك المهام، مراقب عليها، ومسؤول عن تحقيقها «ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره»، وعبوره للنجاة في الآخرة مرهون بالقيام بهذا الدور.

تلك حقيقة كبرى تحتاج إلى وقفة متأنية؛ لأنها منظور كامل شامل، أداة تفسير يحملها الإنسان لوجوده ككائن عاقل على ظهر البسيطة، وهو ليس معنى مجرد، بل هو تصور حاكم لكل حركة للإنسان في الحياة، والناس تبحث عن تفسير لهذا الوجود، والجدل محتدم. أهو وجود

٢ يقدم الدين رواية كاملة من أول الخلق إلى ميلاد الإنسان إلى وفاته حتى حسابه، ومعها القواعد الكلية التي تضمن له النجاة مثل: الإيمان والعمل الصالح وما يقود إليه.

أحدثته الصدفة العمياء؟ أم تفاعلات كيميائية تمت في بطن التاريخ، في لحظة مجهولة، ولسبب مجهول قادت عبر مليارات السنين إلى نشأة الكون ومنه الأرض، واستمرت بالتطور حتى أصبحت مناسبة لوجود الحياة، فبرزت أولى الكائنات الحية، وبقيت تتطور عبر ملايين السنين حتى ظهر في قمة السلسلة هذا الكائن البشري العاقل؟ لا معنى للوجود، إلا ما يعطيه الإنسان لذاته من تفسيرات! هذه التفسيرات تروى وكأنه لم يكن هناك إله مدبر لشؤون الكون، لكن يقابلها تفسير آخر يطرحه الدين الذي يجعل من الإله علة وجود للكون، الرسل هم المبلغون عنه، والكتب هي مادة الرسالة، فتُحدد للإنسان مهمته ومعنى وجوده ومصيره، وتترتب على هذا الفهم مسؤوليات وواجبات وحقوق.

نجاة الإنسان كما يطرحها القرآن تتحقق في الأرض عبر تحقيق ثلاثة أبعاد مجتمعة «إيمان، عبادة، وإنفاق في الأرض»: إيمان بالصورة الكبرى للوجود، صورة تربط عالم الغيب بعالم الشهادة، صورة تربط المحدود - عالم الشهود - بالمطلق - عالم الخلود -، وتجعل هذا العالم سببا لإعمار عالم الشهود. هذا الإيمان ينعكس على فعل الإنسان في الأرض في شكل صلة بالسماء، وقد عبر عنها القرآن بصلاة تروي روحه، تجهزه باستمرار بآلية تذكير وشحن بالمعنى الأكبر للوجود، وبمهمته في الأرض، وترتقي به لمقام الذكر الذي يورث التقوى، والتي تقوده إلى الإحسان الأقصى في صناعة الحياة. وذلك هو البعد الثالث الذي يوظف الإنسان فيه طاقاته، وكل ما رزقه الله من مواهب وقدرات وإمكانيات «يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون»، فبدون ترابط الأبعاد الثلاثة في العقل والفعل، يفقد الدين فاعليته.

مهمة الإنسان في الأرض تكون بإعمارها «واستعمركم فيها»، ويقيم فيها العدل «ليقوم الناس بالقسط»، ويبسط فيها الرحمة لكل الموجودات «رحمة للعالمين» ويوقف الفساد وسفك الدماء «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر»، «ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها»، «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون»؛ لذلك الإنسان مزود بملكة العقل والقدرة على التعلم المستمر، وهما سلاحه في الارتقاء من مقام الإفساد وسفك الدماء لمقام الإصلاح والبناء، «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (31)قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(33) وبالتالي فحاجة الإنسان للعلم ضرورة لوجوده، ولسلامة الوجود، وزيادته للعلم فيه منفعة له؛ لذلك عليه بطلب الزيادة في العلم «وقل ربي زدني علما»، وليعلم أنه مهما ارتقى في العلم فهو لايزال على الشاطئ «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»، وأن سقف العلم سباق بين البشر «وفوق كل ذي علم عليم»، وأن كل سوء يحدثه في الكون يقابله جزاء من جنسه «ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به»؛ فتقصيره في الأخذ بالأسباب يقابله جزاء القصور.

نقطة البدء: في سبيل بلاغ الفكرة وتنفيذها يرسم القرآن خطا يبدأ بنقطة الإنذار «لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون»، أول مهام الرسل، والمصلحين على إثرهم: هي جرس الإنذار الذي يوقظ الغافلين، جرس تنبيه لهذا الكائن المتسائل والقَلِق، الذي يطرح سؤال المعنى دون بقية الكائنات من حوله. تنبيه له أن للوجود معنى، ولوجوده معنى أيضا، فهو كائن يبحث عن الخلود، ويشغله سؤال الموت والفناء، يحتاج إلى معرفة أن وجوده كيان ممتد قبل عالم الشهود، أثناءه، وبعده. إنه وجود مكلف، ووجود مسؤول ومحاسب.

صحة الاستجابة للنذير تحتاج لحسن التفكير والعلم والفهم «لعلهم يتفكرون»، «لعلكم تعقلون»، «لعلهم يعلمون»، و»لعلهم يفقهون»، ونقاء الضمير «إلا من أتى الله بقلب سليم». وكلما قويت ملكة التفكير؛ زاد العلم، وارتقى الفهم.

للتفكير في القرآن مهمة ضخمة، فبه يميز الإنسان الصدق والكذب، بين الصواب والخطأ، والحسن والقبيح، على أن الوعظ لا يجدي لوحده إذا كانت طبائع التفكير سيئة؛ بل إن التفكير السليم يورث الحكمة والسداد «ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا». الإنسان بطبعه كائن متفكر، فبه يميز بين صدق الرسالة من كذبها «لعلهم يؤمنون»، بالتفكر تولد حالة حضور الخالق في نفس المخلوق «لعلهم يتذكرون»، بالتفكر ينتهي الإنسان عن المفاسد والشرور «لعلهم ينتهون»، ويتوب ويتضرع لخالقه «لعلهم يتضرعون»، بالتفكر يحاسب نفسه ويُقَومُها قبل الفعل، وأثناء وبعده «لعلكم تتقون»، بالتفكر يتصل بربه ويشتاق إليه، بالتفكر يقوم أخلاقه ويهذبها «لعلهم يرشدون»، وبالتفكر يعمر الأرض ويصلح فيها «واستعمركم فيها». والعكس صحيح: فحينما يختل التفكير؛ تنمو الشرور والنقائص. العلم والتفكر:هما طريق الوصول لعمارة الكون والآخرة.

مطلب النضج: حينما تستقيم حياة البشرية وتبلغ مرحلة النضج «لعلهم يرشدون»؛ تتحقق فيها الرحمة والقسط، وتكون قد شَكَرَت الخالق عمليا بلسان الحال والمقال «لعلكم تشكرون»، «اعملوا آل داوود شكرا «، حينها تكون شروط النجاح قد تحققت «لعلكم تفلحون»، فلاح يشمل الدارين.

موقع الشعائر الكبرى: ما موقع الشعائر الكبرى من الدين كالصلاة والصيام والحج؟ هل هي من الغايات أم من الوسائل؟ وما موقعها من صناعة الحياة؟ حين ننظر للقرآن باعتباره نسقا، فلا مفر من أن نرتب عناصره ما استطعنا في أماكنها، فالنسق كما أسلفنا لا يعمل كأجزاء، لكنه يعمل ككل.

الدين نسق، والصلاة والصيام والحج: أجزاء مهمة منها، هي وسائل لتحقيق غايات أسمى، فالصلاة ذكر، والذكر حضور الخالق في نفس المخلوق حضورا يجعله بمثابة الرقيب والشاهد على أفعال الإنسان، حضوراً فاعلا في عمله اليومي، حضورا يمنعه من المنكر بأنواعه: سواء ما يخفيه الإنسان، أو ما يجاهر به ويتبجح «الفحشاء». يقول الله عز وجل: «وأقم الصلاة لذكري»، «واذكروا الله كذكركم أباءكم أو أشد ذكرا»، ويعلل فعل الصلاة ووظيفتها: «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر»، وعبر عنها القرآن بأنها «تأمر» كما قال قوم

شعيب له: «أصلاتك تأمرك».

كم من مصل لا صلة له بغاية الصلاة ووظيفتها؟ إن انصراف الذهن عن الغاية يجعل العمل أجوفا، فهو أشبه بسيارة في غير اتجاه؛ مهما دارت لا تحقق الغرض من وجودها، إنها الشق الأسهل من المعادلة، حيث لا تستغرق الصلوات اليومية بمجموعها نصف ساعة من العمل، ويبقى فعل الإنسان خلال ثلاث وعشرون ساعة ونصف فارغا من غايتها.

إن الامتناع عن الفحشاء والمنكر جزء من التقوى التي تشمل كل حركة الحياة؛ حيث أن كل عمل تدخله التقوى، فالصلاة بكمالها: هي من أثر التقوى «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون»، والصيام: شعيرة كبرى، وظيفتها تمكين التقوى «كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون». والحج: شعيرة كبرى أيضا، لها وظيفتها التي تخدم غايات النسق «ليشهدوا منافع لهم ويذكروا الله في أيام معدودات».

هكذا تلتحم الدنيا بالآخرة، فمنافع الدنيا التي جاء الدين ليعمرها تلتحم بصلة وثيقة بمطلب الآخرة في سعي الإنسان المستمر لتحقيق معادلة «اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة».

على الرغم من أن ما قيل يملأ النفس بالمعاني، إلا أن هناك المزيد، فلنواصل هذه الرحلة، ولنبحث عن نسق التعايش بين البشر فهي النقطة المشتبكة في العقل المسلم اليوم؛ حيث أن كل ما سبق كان مقدمات لفرش الطريق أمام طرح المزيد من الأسئلة الكبرى. وفي رحلة البحث عن النسق نحتاج أن ننظر لسورة الفاتحة فهي ثاني محطات التأمل الكبرى وبدونها تضيع منا الصورة الأهم.

الفصل الثاني: فاتحة الكتاب

ائتمان الإنسان على المشروع وتنزيله من السماء إلى الأرض:

لقد تعلمنا من قصة الخلق أن الإنسان مسؤول عن الإيمان، الإعمار، العلم، الاختيار والعمل. وسورة الفاتحة تضعنا أمام متطلبات التنزيل للواقع (إيمانا، فلسفة، منهجا، قلبا، عملا ونتيجة). إن تكرار الفاتحة هو تذكير بائتمان المؤمن الحق على مشروع بسط الرحمة للعالمين، وتجسيدها هو التنزيل العملي لمطالب الدين من الإنسان واستكمال لصورة مشهد لحظة الخلق الأولى.

نموذج تدفقات سورة الفاتحة:

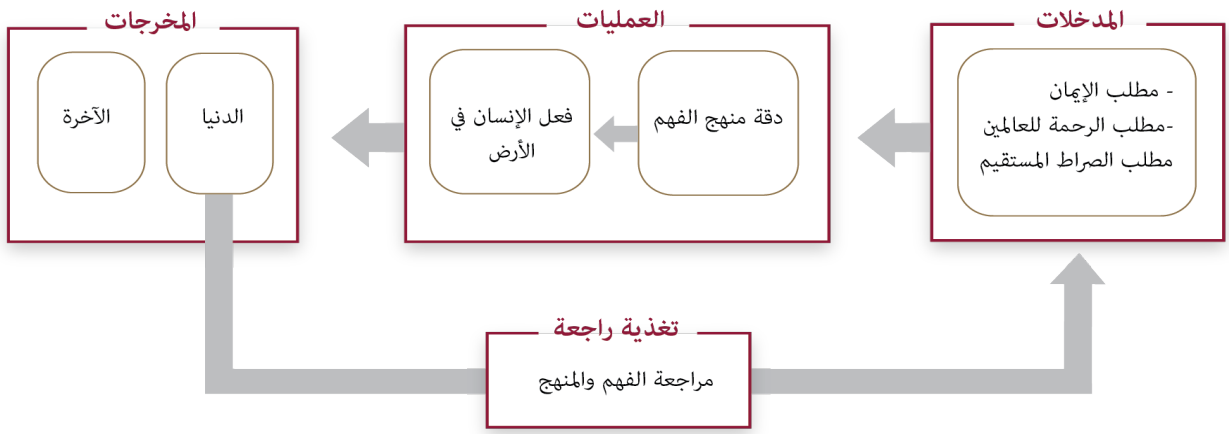

(نموذج ٢ / تدفقات سورة الفاتحة)

القرآن الكريم ساحة ضخمة لتفاعل الوحي مع أحداث المجتمع الأول، يتحرك فيها النص الإيماني، القيمي، التشريعي، القصصي والأخلاقي؛ حيث ينتقل فيها القرآن بأسلوبه بين شتى المواضيع بحسب الحاجة ليعبر إلى النفس الإنسانية من خلال العقل والمشاعر، لكن أين تقع تلك الصورة الكلية التي تختزن كل المشهد، والتي تلخص تلك الحقيقة الإلهية؟ إنها فاتحة الكتاب التي توجز وتلخص الرسالة. إن معرفة الصورة الكلية التي تحكم حركة أجزاء المشروع القرآني في إنشاء التصور البشري لا بد أن تعبر من سورة الفاتحة:

١. بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

٣.الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤.مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ

٥.إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

٦.اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

٧.صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ

سورة الفاتحة تقول للبشرية آمنوا بإله خالق معتني، آمنوا بأن الرحمة هي الأساس، تحمّلوا مسؤولية أعمالكم لأنكم محاسبون، لا تخضعوا إلا لله ولا تستعينوا إلا به، الثبات على الصراط المستقيم والهداية إليه من تقوى المؤمن، وأن الانحراف عنه ناتج عن فساد الضمير أو عدم التدقيق في المنهج.

تلك هي كُبريات المسائل الدينية في شكل عناوين، تجيب عن سؤال الموجود الأعلى، عن عنوان فلسفة الوجود، وعن حرية الإنسان ومسؤوليته، كما ترشده لطريق العمل المطلوب عبر نماذج عملية، وتضع له قاعدة السلامة (ضمير مستجيب إلى الحق ومنهج قويم للوصول إليه).

غياب تصور المشروع:

ليس هناك شيء أكبر من ضياع هوية المشروع، وتحويله لطقوس وشكليات لا تقود الفعل الإيماني لغاياته السماوية، فالفاتحة تركيز كثيف للمشروع في الوعي، هي دعوة لأمهات قضايا الدين حين يتحول لنسخة تبتغي معالجة الواقع الإنساني المتجسد؛ حيث أن الإنسان بعد إدراك الأسس لابد أن يطرح على نفسه الأسئلة التي يثيرها الوعي بها، فسؤال العقل المنطقي بعدها يقوده لطبيعة التنفيذ، أو لسؤال دفتر التحملات التي يلتزم الإنسان بها، مثل:

- ماذا تعني قضية بسط الرحمة للعالمين من استعداد نفسي وعقلي وأفعال تجسدها على أرض الواقع؟

- ماذا تعني المسؤولية الفردية التي يُحمّلنا إياها مفهوم يوم الدين؟ على نوعية العمل الذي نختاره؟ ودرجة الإحسان فيه؟ وعلى علاقته بمفهوم الرحمة؟

- ماذا يعني أن يكون مفهوم الصراط المستقيم يتجسد في أفعال المؤمن؟ وكيف سينعكس على تصور الفعل ونطاق الواجبات الملقاة عليه بعد فهمه؟

- ماذا تعني مسؤولية صفاء الضمير اتجاه قبول الحق؟ ودقة المنهج؟ ومعاودة النظر في دقته باستمرار؟

هكذا تتحدث سورة الفاتحة فلنتابع تدفقاتها:

بسم الله الرحمن الرحيم

نكرر التسمية مع كل عمل، فهل هو عمل نفهم مقصده وغايته؟ أم هي عادة نكتسبها؟

ليست التسمية التي نكررها مع كل سورة ومع كل عمل أمرا تبركيا يفيد الذكر المجرد، بل هي مشروع الدين في الحياة... إنها مشروع يقرأ الفعل الإنساني في الكون بأنه صدى لرحمة الخالق للخلق، إنه أمر يتصل بأعمق ما في النفس الإنسانية من خير؛ حيث أن الرحمة: هي عاطفة عميقة تقود للتسامح من ناحية، ومن ناحية أخرى: هي عطاء موصول للخلق.

التسامح والعطاء: مفهومان كبيران، متصلان بمشروع الدين في الوجود، لكن كم من العصاة؟ كم من المقصرين؟ كم من المجرمين؟ وكم من الضعفاء والمستضعفين المحرومين في هذا العالم؟ أي رحمة تتجلى في هذا الكون؟ وفي أي اتجاه؟

حينما ننظر لمشروع الدين في الحياة - الذي هو إقامة العدل من جانب، ووقف الفساد في الأرض وسفك الدماء وإعمار الأرض من الجانب الآخر -، ستتضح وتستبين الوجهة التي تتحرك فيها مسألة العدل، ومسألة الرحمة ببعديها الكبيرين التسامح والعطاء، ففي حركة الحياة توجد القضايا الكبرى «الفقر، الجهل، المرض والحروب» وتتشكل قضايا السياسة، الاجتماع والاقتصاد. فماهو المشروع الكوني الذي تطرحه قضية البسملة؟

من هنا تتضح حجم الفجوة بين القرآن الذي نلتقي به في البسملة كمشروع تحرر كوني إنساني قلبه الرحمة، وبين القرآن الذي يصوره البعض بأنه مشروع احتلال للعالم وقسر وقهر...! على الشباب المسلم اليوم أن يطرح على نفسه أسئلة هامة: من يمثل التسامح الكوني؟ من يمثل العطاء الكوني؟ من يلتحم بالذين يأمرون بالقسط من الناس؟

إن مشروع الرحمة بالنسبة للبشرية هو مشروع عملاق، والمسافة بيننا وبينه تكمن في عبور جسر الفهم نحو إحداث تغيير حقيقي في فهمه، وهذا ما سينقله من البعد العرقي والطائفي التاريخي الذي أسر فيه، إلى بعد إنساني عميق لا زالت البشرية تشتاق إليه، ولا ترى له تمثيلا بعد.

إن مشروع الرحمة للعالمين: هو انتقال في الفهم، يتجاوز الوعي الشائع عمقا، يتجاوز دوائر الاهتمام والقضايا التي نهتم بها اليوم، يتجاوز الأعراق والأجناس بل ويتجاوز الجغرافيا التي نتعامل معها اليوم! إنه يعني في العمق تنشئة جديدة، مناهج، لغة، فهما، دائرة علاقات وعملا جديدا.

البسملة هي إعلان عن اختيار واضح بوجود إله خالق معتني بالكون، مما يعني أن العناية وكل الرحمة السابغة هي روح البسملة وقلبها، وهي شاملة واصلة لجميع الخلق؛ لذلك نجد مشروع الرحمة واسع الذكر في القرآن وبأشكال شتى.

إننا نكرر ذكر الرحمة مع كل بسملة، مع الفاتحة، مع قراءة كل سورة، في تحيتنا إلى البشر والخلق، بل إننا نطرحه في سلامنا على الرسول أكثر من خمس مرات يوميا. نطرحه في صورة بشرى للناس «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» وقد ذكر الله بأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أُرسل بمد بساط الرحمة للعالمين على سبيل الحصر والقصر «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين».

إن هذه الرحمة تقتضي مد بساط العدل للبشر «وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط»، وهو مشروع لم يكتمل بعد؛ فقد طرحه الرسل عبر البلاغ المبين «وما على الرسول إلا البلاغ المبين»، وواصلت البشرية فيه تجاربها، مؤمنها وكافرها؛ فأنتجت بعض المجتمعات نُظما داخلية صالحة لأهلها، لكنها عجزت رغم النداء عن بسطه كرحمة للعالمين؛ حيث قصرته وجعلته حكرا على شعوبها، وبقيت البشرية في شوق لما هو أسمى وأعلى. عدل يشمل كل البشر بمختلف مللهم ونحلهم «ليقوم الناس بالقسط»، وهي مهمة تنتظر أمة حاملة للنور، تعطي من نفسها وتمد بساطه ليشمل الإنسان في كل مكان.

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم:

إعلان مؤكد أن الخالق هو رب العالمين، وأن رحمته ممتدة لكل خلقه مؤمنهم وكافرهم. إن القرآن يؤكد وبشكل مستمر بأن العناية بالكون ليست نتيجة الرضى، بل نتيجة القبول؛ فالله لا يرضى الكفر، لكنه يقبل بوجوده كاختيار بشري في امتحان الإنسان في الحياة. هو فوق ذلك يبسط للجميع من رحمته، ويحملهم في البر والبحر ويرزقهم من الطيبات «كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محضورا»، إنه أمر متعلق بتلك الرحمة الواسعة لا بموقف الإنسان من الدين، هم مكرَّمون باعتبارهم بشرا. مشروع الرحمة للعالمين والعناية بهم هو انعكاس لذلك الفهم.

القرآن يُعَلِّم الإنسان عبر الفاتحة وغيرها بأن يحمد الله على أنه رب العالمين، ويخبر بأن رحمته وسعت كل شيء «ورحمتي وسعت كل شيء»، فكل ما عدا الخالق داخل في الرحمة. إن الحضارة المثلى يجب أن تكون رحيمة بالأرض والسماء، رحيمة بالإنسان والحيوان، رحيمة بالشجر والحجر، ورحيمة بالماء والهواء، وينبغي أن لا تردد ذلك أقوالاً، بل أن تعيش تلك الحالة في أخلاق أفرادها، في تشريعاتها، وفي ممارساتها ومشاريعها.

مالك يوم الدين:

أحد أهم المسؤوليات الملقاة على عاتق الإنسان المؤمن هي مسؤولية العناية بالخلق، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ»، «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا

هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى»، وهذه المسؤولية ستقتضي المحاسبة، فلا غرابة أن يعرض القرآن موضوع «مالك يوم الدين» باعتباره نقطة ارتكاز لفكرة المسؤولية عن العمل. إن عودة الإنسان لخالقه مسألة كبرى، والقرآن حين يبينها؛ يخبرنا بأن هناك دور وظيفي لذلك البيان. إنه أمر متعلق بتلك المهمة التي وُكلت إليه في الأرض؛ حيث أن ما يحاسب عليه الإنسان هو ما يفعله في الأرض كالإيمان والكفر، الخير والشر، والصواب والخطأ كلها قضايا نتاج فعل في الحياة الدنيا «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره».

إن لليوم الآخر مفهوم واسع، فعلى سبيل المثال: مطلب العدل لا تكتمل دائرته في الحياة الدنيا؛ حيث أن حظوظ الناس في الدنيا متفاوتة –الفقر، الجهل، الأمراض والحروب - مما يجعل الفوارق بين البشر في مسيرة حياتهم تختلف اختلافا كبيرا، فهناك من هو مطمئن البال، آمن في سربه، لا يشكو قصورا؛ وهناك من حظه سرابٌ. ومن هنا ولد سؤال الشر، الذي يجعل كل الإجابات الملفوفة الجاهزة تعجز عن حل ذلك اللغز المتعلق بمراد الخالق من هذا التباين، مما لا يبقي سبيلا لإغلاق الدائرة إلا بوجود عدل نهائي يجعل انتظارات الإنسان ذات معنى، واليوم الآخر يلعب هذا الدور الهام.

إياك نعبد وإياك نستعين

هذه الآية تجعل الإنسان طالبا لأمرين: طريق العبادة وطريق العون، وهما يتجهان إلى الله ومنه. إن هذا الطلب مفهوم له بعدان: بسط مفهوم العبادة. وإزالة الوسطاء.

البعد الأول:

تعتبر العبادة فعل جامع لكل النشاط الإنساني القاصد إلى الله، النافع للخلق بشقيه «الشعائري والدنيوي»، هذا ما يظهر واضحا في كتاب الله، وهو امتداد بياني لفكرة الرحمة بالعالمين، وامتداد لمسؤولية الإنسان عن بسط هذه الرحمة للمخلوقات، على أن هذا الفعل الجامع: هو موضوع سيشرحه القرآن بوصف «صراط الذين أنعمت عليهم»، وذلك هو «الصراط المستقيم".

إن العبادة في العقل المسلم السائد اليوم، ليست التي في القرآن، والتي تعني كل طريق يؤدي إلى نعم الله التي منحها للإنسان. بل سنجدها في الوعي العام بشكل آخر، حيث أصبح العقل لا يستدعيها إلا في سياق الشعائر، أو بعض الأعمال الصالحة الجزئية. إنها لم تعد لتستوعب متطلبات الإعمار، لكنها أصبحت فعلا مريحا للضمير في أدنى درجات الفعل: صلاة، صياما، حجًا، صدقة، سدًا لاحتياجات الفقير، أو المسكين، حلاً لحالة آنية.

أما الصراط المستقيم فهو أمر سيشرحه القرآن عبر الأمثلة الحية؛ لأن البشر سيغتالونه بفعل عوامل التدين التي سارت فيها كل الأمم من قبل، مما أدى إلى تقزيم مفاهيم القرآن، فاختلت الصورة وضاعت الخارطة، ولا سبيل لعودة الحيوية لمجتمعنا المسكون بالدين، إلا بإعادة الحياة لمعاني القرآن ومفاهيمه الكبرى كما تنزل في أول عهده. إنها مسافة كبيرة، ومعركة كبرى؛ لأنها

تقتضي إعادة إنتاج صورة العمل الصالح في مناهج وهيئات التدريس، في كتب العلم، في فكر الخطباء والوعاظ، ومن ثم في عقل الجموع المسلمة.

البعد الثاني:

سنجده يخبر بأن أهل الأديان - من رهبان وكهنة - دائما ما يعمدون لوضع الوساطة بينهم وبين الخالق في حياة البشر، الأمر الذي كان جليا في مختلف الديانات التوحيدية والوثنية، ومراد الشارع هو تحرير الإنسان من كل سلطة أرضية.

إن الرهبان والكهنة هم حالة إنسانية ابتليت بها كل الديانات التي سبقت الإسلام؛ لكونهم حاملين لراية الدين تحت لواء وسطاء الرب على الأرض، وتطرق القرآن لهذا النوع من رجال الدين في الأمم الأخرى هو تحذير للأمة الخاتمة. خصوصا وأنه ليس بالضرورة أن يعلنوا أنفسهم وسطاء، كما أنه ليس بالضرورة أن يعتبرهم الناس وسطاء أيضا، لكن ممارستهم للدور وتقمصهم له هو المهم، فكلامهم الذي يخاطبون الناس به لا يوحي أنه من فهمهم واجتهادهم، إنما يطابقون بين قولهم وبين مراد الشارع «الله». هم حين يُخاصمون ويجادلون مخالفيهم في الرأي؛ ينظرون إليهم على أنهم مخالفون لمراد الشارع لا لفهمهم هم.

وهكذا انحرفت الديانات السماوية، وأصبح الدين أداة للفرقة والاختلاف، وبذلك لا غرابة في فوضى الفتاوى والاجتهادات المتباينة التي قادت ولازالت تقود إلى التناحر، الاقتتال والدماء، التفريق بين المسلمين، والتفريق بين الإنسان وأخيه في العالم. إن الأمر ناتج عن فكرة الوسطاء الذين يطابقون قولهم بمراد الشارع دون تمييز. كيف لنا أن نحل هذه المعضلة المزمنة التي تخلقت في البيئة الإسلامية كما تخلقت في البيئات السابقة ما لم نستجب إلى مطالبة القرآن بتنحية الوسطاء؟

اهدنا الصراط المستقيم:

إن الطريق المستقيم يحتاج لكتاب محفوظ، ويحتاج لهداية عون ضرورية «وإياك نستعين» لفهم هذا الكتاب، والعمل بقيمه، وانتهاج السلوك وفق مراده، لكن ما هو هذا الطريق؟ وكيف يتجسد؟

القرآن شيئا فشيئا يكشف عن معنى العبادة والاستعانة المقصودة، ويصفها بأنها طريق مستقيم؛ يقود إلى ذلك الفوز الموعود في الدارين «الدنيا والآخرة"، ومثال ذلك ما ندعو به «اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة»، فهل هناك المزيد من الشرح لبيان المراد؟

صراط الذين أنعمت عليهم:

«من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» الذين يأمرون بالقسط من الناس، إنهم خلق

كبير من البشر عرضهم القرآن بنماذجهم البشرية، حتى لا يلتبس الطريق على السالكين، ولا يعود الأمر بحاجة لاجتهاد، فهم بشر قدموا نماذج شملت كل مقتضيات السير في الطريق المستقيم، لكنهم كانوا ملتزمين بما اقتضاه الشرع؛ لذلك لابد من تذَكُّر أعمال السابقين الصالحة باستمرار؛ حتى لا ينحصر المعنى ويتقلص ويتقزم، لكن هل لنا أن نسأل ما الذي يعيق الوصول للطريق المستقيم في حياة البشر؟

غير المغضوب عليهم:

إن أول الآفات الكبرى التي تعترض الوصول للطريق المستقيم هي آفة فساد الضمير، التي تمنع صاحبها من قبول الحق متى استبان له؛ حيث أن البشر مرتبطون بموروثاتهم، مصالحهم وعواطفهم أكثر من ارتباطهم بالحقيقة، مما يجعل آفة الكبر والهوى تعصف بالنفوس.

لقد ضرب الله مثلا ببني إسرائيل وهم ليسوا استثناء، فلو كان الأمر مقصورا عليهم لما ورد التحذير إلينا، لكنها آفة عامة في البشر، قابلة للحدوث من أهل كل ملة ودين. الموضوع ليس في قبول دين أو ملة، لكن في علاقة الإنسان بالحق والحقيقة، ودرجة صدقه مع نفسه ومراقبته لها، فعمليات الإصلاح في شتى مناحي الحياة تواجه بعناد البشر، وتآلفهم مع موروثاتهم حتى وإن خالفت الحق والحقيقة. إن صراع الإصلاح يمر عبر تلك البوابة الكبرى: سلامة الضمير، ولكن هل ذلك هو الحاجز الوحيد أمام الإنسان؟

ولا الضالين:

الضلال والهدى متعلقان بصحة أو فساد المنهج، فهما من مصطلحات الطريق، والقرآن خاطب العرب بالأمور والأشياء المألوفة لديهم، حتى في اللغة، فالعربي يسير في الفلاة الواسعة، إذا اهتدى للطريق نجا، وإن ضل هلك؛ لذلك استعارها القرآن لفكرة الاتباع القرآني باعتباره كتاب هداية موجه للبشرية عبر استخدام لغتهم.

إن قراءة القرآن والاستفادة منه هو وليد منهج ينتجه الإنسان، وهذا المنهج البشري - الوسيط - يُعتبر نحتا بشريا يحتاج إلى تدقيق. من هنا تعددت القراءات للقرآن، فهناك من يقرؤه مجزأ عبر المأثور، وهناك من قرأه بالتأويل والكشف، وهناك قراءة تدقق وترى أن لكل سورة نسقها، ولكل قراءة نواقصها، ولكن لماذا التدقيق في المنهج؟

لقد مرت البشرية ولازالت تمر بموجات من اليقينيات الموهومة، فقد آمنت يوما بأن الأرض مسطحة وبنت على ذلك قراراتها، ومن ثم اكتشفت - بعد ألف عام - أنها أخطأت الطريق؛ نتيجة قصور المنهج، وقد كانت صدمة كبرى؛ أدت لثورة في المناهج ما زالت قائمة. إن التدقيق في المنهج أمر في غاية الخطورة، ويحتاج إلى عقول جبارة منفتحة على احتمال الخطأ؛ حيث أن قدرة البشر على مراجعة المناهج درجات.

المناهج هي نحت بشري إلى أن أُسبغت بالقداسة، ونُزِّهت عن النقص، فاستحالت

مراجعتها. وإن كانت النصرانية وُصفت بخطأ في المنهج، فهي ليست استثناء؛ حيث أن فساد المنهج يأتي بسبب كونه بشري، وإسباغ القداسة عليه هي آفة مطردة في البشر لا تسلم منها أمة.

رؤية النظام: الرؤية الكلية لسورة الفاتحة:

إن المشروع القرآني في الكون ينتظم في سورة الفاتحة؛ فهي انطلقت من نقطة الإيمان إلى تقرير الرحمة الشاملة لكل المخلوقات، ثم أسست لفعل الإنسان في الأرض؛ متمثلا في العبادة والاستعانة، وشرحتها السورة بأنه الطريق المستقيم - الذي قدم لنا القرآن نماذجه في سوره وآياته الأخرى -، وأن هناك نتيجتان للفهم والتنفيذ: نتيجة أخروية علمها عند الله، ونتيجة دنيوية يمكن رؤيتها في واقع المجتمع الإنساني. هاتان النتيجتان هي مصاديق الرحمة بين البشر والإعمار الذي يتسع لكل البشر، لكن إن اختل النظام؛ عاد الناس للتأكد من مطالب الخالق ومن منهج الاستنباط من كتاب الله.

إن إنشاء أمة جديدة يحتاج إلى أمرين كبيرين أولهما: إعداد الإنسان الذي يتمتع بسلامة القلب، ومزود بمنهج سليم. ثانيهما: تعريفه بخالقه، فلسفة حياته، مهمته، مصيره ومسؤوليته عن ذلك المصير.

الفصل الثالث: الأبعاد الثلاثة

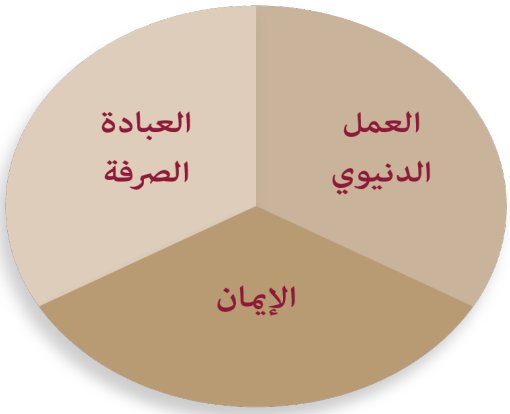

(نموذج ٣ / الأبعاد الثلاثة للدين)

سبق وأن تطرقنا إلى كُبريات القضايا من سورة الفاتحة، لكن ما الذي سيشكل خطرا على فهم الدين ويقود إلى فقدان فاعليته؟ هذا ما حدثتنا عنه سورة البقرة في فواتحها، إنها تقوم بتعريف «المُتَقين» الذين ينتفعون بالقرآن، ويحملون فهمًا ذو ثلاثة أبعاد: إيمان، صلاة، وإنفاق في الأرض. إن هذه الحلقات المجتمعة: هي مقتضى التقوى، وعلامة سلامة الفهم والدليل على طريق الفلاح.

لنمضي مع مقدمات سورة البقرة التي تبين الأبعاد الثلاثة:

١. آلم

٢. ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ

٣. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ

٤. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ

٥. أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

ها نحن أمام تركيز شديد يُضيفه القرآن لمشروع الرحمة بالعالمين، هذه الرحمة التي توجه الفعل إلى التقوى والفلاح، والذي يأخذ ثلاثة أبعاد متكاملة:

يؤمنون بالغيب: الإيمان بالخالق، الحساب، الجنة والنار هو جزء من التصور.

يقيمون الصلاة: جزء الروح وصلتها بخالقها، وبحسب القرآن فهو جزء وظيفي يجعل الخالق حاضرا - معنى الذكر في القرآن - في وعي المخلوق؛ فيمتنع بهذا الحضور عن الفحشاء: التي هي كل متناهٍ في القبح من القول والفعل الذي يجاهر به صاحبه ويعلنه. والمنكر: الذي هو كل ما تقرر وتَحْكُم العقول السليمة بقبحه، أو حرمه الشرع أو كرهه. إن المنكر هرمٌ قمته الفحش.

ومما رزقناهم ينفقون: لقد رزق الله الإنسان العقل، الصحة، المال، العلم، الوقت، الجاه وحسن إنفاق كل ذلك؛ مؤديا الرسالة بنشر رحمة الله في الأرض عبر وقف الفساد، سفك الدماء، وسريان العمران في هذه الدنيا.

نحن أمة انفكت فيها الروابط الحميمة بين أبعاد التصور القرآني للفعل الإنساني، واختلت صورة المفاهيم حتى غاب المعنى القرآني وتقزم؛ حيث اكتسبت معاني بديلة عبر الخطباء والوعاظ، فكلما ذكرت الألفاظ القرآنية أصبح العقل المسلم يستحضر مفاهيم رجال الدين فقط.

إن أول مشاكلنا تكمن في انفكاك الروابط بين المعاني الثلاثة الملازمة لـ»التقوى» والدالة عليها، فنتيجة الفلاح مرتبطة بفعل التقوى، ومؤشرات التقوى الخارجية تتمثل في مثلث متساوي الأضلاع وهي: الإيمان المؤسس للفعل. العبادة المذكِّرة للعبد، والمانعة من الفحشاء والمنكر، والباعثة للتقوى. والإنفاق المطلق للعمران في الأرض.

فلا مجال لإيمان مجرد لا يحرك الإنسان في اتجاه مطالب السماء مع اتجاه عمران الأرض. الإيمان في القرآن دائما يتبعه العمل الصالح «آمنوا وعملوا الصالحات». إن العمل الصالح يتكرر مع كل أمر بالإيمان؛ لأنهما وجهان لعملة واحدة «أرأيت الذي يكذب بالدين، فذلك الذي يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون»، إن الوجه الآخر للإيمان هو «عمل في نفع الخلق والمجتمع».

لقد فعلت اتجاهات الوعظ في البيئة العربية والإسلامية فعلتها، فغيرت كيمياء الإسلام حتى بدى وكأن العمل في الدنيا هو انتقاص من عمل الآخرة، وتولدت ترسانة كبيرة تُهَون من شأن الدنيا والاهتمام بها؛ مظنة أنها مشغلة عن الآخرة في المطلق، فضاعت بوصلة التوازن، ونسي من نسي أن الدنيا تدافعٌ بين البشر «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا».

إن الدفاع عن منظومات الأفكار، وعن الإيمان ذاته؛ يحتاج إلى امتلاك كل مقومات القوة في الدنيا، فالمحافظة على الأرض التي نصلي عليها، والكتاب الذي نحمله تحتاج إلى علوم السماء والأرض. وكرامة المؤمن لا يمكن أن تتحقق وهو يمد يده متوسلا سلاحه، طعامه، دوائه، شرابه، تعليمه، كتابه، معارفه وكل مستلزمات حياته.

إن خط التذكير العبادي - المتمثل في الشعائر - يلعب دورا مهما بين الإيمان والعمل؛ حيث

نجد الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصوم يقود إلى التقوى. إنها ثلاثية تعمل بتناغم، لا غنى بأحدها عن الآخر، وإذا تفككت؛ فَقد الدين فاعليته في واقع البشر.

الفصل الرابع: متطلبات العمران

نموذج تدفقات العمل الصالح ونطاقه:

العمل الصالح، يُعرِّف نفسه من خلال النماذج التي مثلته في القرآن، والتي صنعت عمران الحياة المُحقِّق للرفعة في الدنيا والفلاح في الآخرة، فإن لم تتوفر الحياة الكريمة في الأمة، يجب عليها أن تعيد النظر في مفهومها للعمل الصالح.

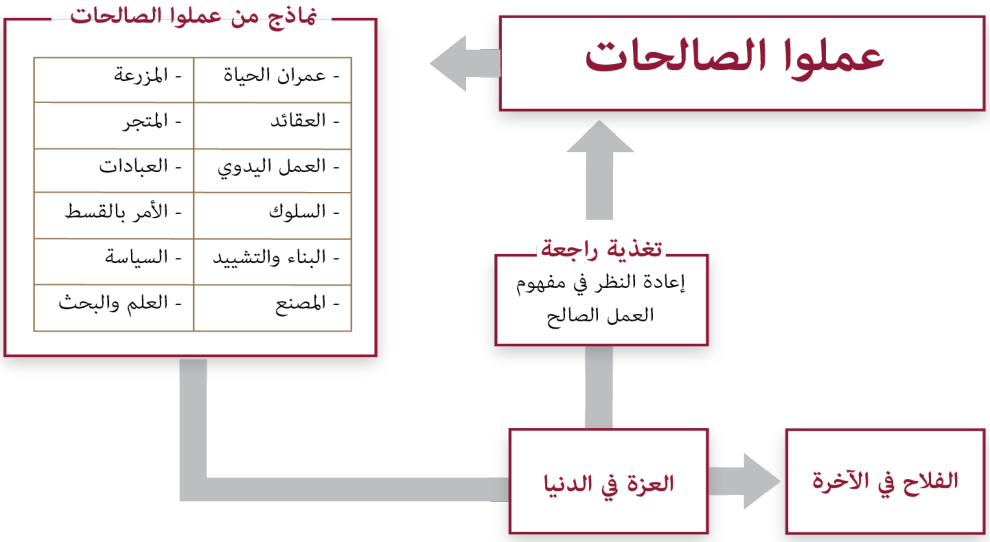

(نموذج ٤ / العمل الصالح)

ماذا حدث لمفهوم العمل الصالح بين وعي المسلم ونزوله لساحة الفعل في صناعة المجتمعات؟

سنستخدم مفهوم الأمة بمعناها الديني الذي يشمل كل المؤمنين عبر التاريخ وقد يشملهم في عصر ما، سواء اجتمعوا في كيان سياسي خاص بهم، أو تفرقوا في العديد من النظم السياسية بتعاقدات مختلفة.

حينما نستدعي الأيتام، الفقراء، المساكين، النساك، العباد والزهاد مع كلمة العمل الصالح، وننسى العلماء، الصناع، الحكام، القضاة، الباحثين، النجارين، المبدعين والمزارعين فهناك مشكلة كبرى؛ حيث أنه تم برمجة عقل الجمهور المسلم على أعمال صالحة محددة بشكل قزَّم النص والمراد القرآني، وتم اعتبار الأعمال الأخرى من جنس مشاغل الدنيا وملهياتها، مما أضر بالوعي في مجتمعات منهكة، تأكل ما يزرعه غيرها، تلبس ما ينسجه غيرها، تتطبب بما يصنعه غيرها، بل وتحارب بسلاح غيرها. لا يمكن لمثل هذه المجتمعات النهوض والتقدم، إلا إذا عاد

مفهوم العمل إلى قامته القرآنية، والسؤال هنا: ما هي قامته القرآنية؟

لماذا تنتصر أمم وتسقط أمم؟

في صراع الأمم ومسيرة الحياة توجد الأمم القوية والمنيعة، والأمم الضعيفة الهشة، ولو تساوى الناس في الكفر، سيبقى عطائهم في الدنيا هو الفارق في قوتهم أو ضعفهم. إن الأمم التي تضبط نظمها السياسية والاقتصادية ستأكل مما تزرع، تتعالج مما تنتج، وتحارب بالأسحلة والآلات التي تصنع حتى تنجح وتتفوق، لكن هل الأمة المؤمنة اعتقادا والمجتمعة سياسةً التي قزمت العمل الصالح ستنافس من أحسنوا؟ أم ستصبح تبعا لهم؟

هل المشكلة في الإيمان؟ أم أنها في اختلال مفهوم العمل؟ وما مصدر هذا الاختلال؟

مشروع القرآن في الأرض سيتحقق من خلال فعل الإنسان في الواقع، لكن مفهوم العمل الصالح الذي هو فعل الإنسان المؤمن في الأرض أصيب بشلل! لقد تقزم نوعا وكمًّا، وتحول عبر الوعاظ إلى أمثلة محدودة، تبدأ من أداء العبادات الصرفة (الشعائر)، وتمر عبر أعمال الإحسان الفردي، ثم صمت مُطبق عن كافة أنواع العمل الصالح المرتبطة ب المدرسة، الجامعة، مراكز البحث العلمي ، المصنع ، المزرعة، بل وفي نشر القيم الكبرى كالكرامة ،العدل، المساواة ،الرحمة.أما من ناحية الكم؛ فكلما قلل الإنسان من فعل الدنيا - بحسب الوعاظ - كان أقرب إلى الله، هكذا تُصَوِّر المواعظ مطالب الدين للمؤمنين ، هي لا تقول لهم أقيموا عباداتكم الصرفة على أكمل وجه، ثم انصرفوا للإحسان في دنياكم مستحضرين النية فتنقلب دنياكم لعبادة، بل تلح عليهم بترك الدنيا وراءهم، وهم حينها يذهبون لأعمالهم التي لا بد منها، لا يستشعرون لذتها ولا دورها في خدمة الدين والدنيا، فلا هم أصبحوا عبادا كما يريد الوعاظ، ولا هم أصبحوا مبدعين في أعمال الدنيا كما تتطلب مسألة إعمار الكون من ناحية أخرى.

هكذا فقدت المجتمعات التي يغلب عليها المسلمون فاعليتها، فمن لا يرى أن الصبر في المصنع، المزرعة، مركز البحث والجامعة جزء من خدمة الدين، ومطلبا ربانيا لإعمار الحياة، ولا يرى في مطالب العدل، المساواة، البر والقسط عملا صالحا؛ فلا بد أنه خاسر في سباق الحياة، ولا يُستبعد من خسارته في الآخرة أيضا؛ لعدم اهتمامه بمطالب الشارع، وعمل الصالحين الذي حث القرآن عليها. إن خروج المجتمعات المسلمة اليوم من مأزقها التاريخي مرهون باستعادة فكرة العمل الصالح الذي أشار إليه القرآن وربطه بالإيمان في كل موضع.

العمل الصالح مرهون بإحداث ثمانية اختراقات في العقل المسلم:

ما هي القيم التي تسمح لمجتمعات بالتقدم على الرغم من قلة مواردها وتمنع أخرى على الرغم من وفرة مواردها؟ في ذات الوقت، تعتبر مجتمعاتنا متدينة حيث أنها تبحث في كل شأن لها عن إجابات دينية - وإن لم تتبعها في كثير من الأحوال – السؤال هنا: ما علاقة فهم الدين وحالة التدين بمنظومة التخلف؟ نحتاج لزيارة تلك المناطق التي لم يصلها التعليم ولا الوعي

الاجتماعي، والتي لن نستطيع اختراقها إلا إذا وعينا بخطورتها، وأصبحت هي مؤشرات التقدم والتخلف، حينها ننتهي من مؤشرات السطح ونصل لجذور التخلف، ونقرر إما البقاء في شكل التقدم الخارجي أم الغوص في مضمونه.

•النظرة للإنسان: «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا». أي نظرة نحمل للإنسان وطبيعته؟ هذه هي نقطة الانطلاق لكل نجاح، فالمجتمعات التي تنظر إلى الكرامة الإنسانية على أنها حق وجودي ومطلق للإنسان، تتصرف على هذا الأساس في كل مناحي الحياة، سواء في البيت مع الأسرة أو الوسط المحيط بها، فكل شيء له علاقة بالإنسان المكرم ستنعكس عليه تلك النظرة، أما المجتمعات التي تعاني من القهر، الإذلال، تردي الخدمات، الفقر والبطالة هي مجتمعات تعاني في عمقها من سوء النظرة للإنسان عموما، فينعكس ذلك على البيت، المدرسة، الجامع، الجامعة، الإعلام والتشريعات.

إن قضايا حقوق الإنسان تنطلق من مبدأ الكرامة الإنسانية، حيث لا يوجد نظام ولا مجتمع خالٍ من العيوب، لكن هناك فرق كبير بين مجتمع يطلق طاقات الإنسان، وبين مجتمع يحاصره، ويسد في وجهه الأبواب. إن الدين قد زودنا بالاتجاه.

•النظرة للعلم: «وقل ربي زدني علما». إن قلب العلم هو اختبار الأفكار عبر فحصها في محكمة الدليل والبرهان، فهل تلك الروح المعرفية التي تبحث عن الدليل والبرهان منتشرة؟ كم مقدار ممارسة التفكير المنطقي والتفكير الناقد في المجتمع؟ ما مستوى الترحيب بالسؤال والبحث؟ أهو مجتمع يفرح بالسؤال الجديد ويشجع إنتاجه؟ أم هو مجتمع يحارب السؤال ويخاف من مواجهة متطلباته؟ ما نوع العلم الذي نهتم به؟ أهوعلم تراثي نعيد إنتاجه المرة بعد الأخرى؟ أم هو علم لدني ننتظره كهبة من السماء؟ أم هو علم فلسفي مجرد؟ أم هوعلم تجريبي محكمته المعمل والمختبر؟ كيف ينظر المجتمع للعلماء والباحثين؟ إن إجابة هذه الأسئلة تعني الكثير بالنسبة لتطلعات المجتمع الصحي والدولة الطموحة.

حينما تنتشر ثقافة مضادة للسؤال، ونمط تفكير عاطفي بعيد عن الدليل والبرهان العلمي بعيدا عن التجربة والمختبر، فلا غرابة أن يتخلف المجتمع عن مسايرة غيره من المجتمعات الناهضة.

•النظرة للطبيعة: «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون». الطبيعة هي الكون المحيط بنا: شجره، حجره، ماءه، هواءه، سماءه، مطره، رعده، برقه، جاذبيته وموجاته، بل حتى الإنسان وجسده من مادة الطبيعة. إنه كون ملئ بالقوانين التي تسمح بتسخيره والاستفادة منه، وكل تهوين في طبائع المادة وقوانين السببية هي بعد عن سنن الفاعلية.

هل لنا علاقة وثيقة بالطبيعة؟ هل تثير الطبيعة دهشتنا وتدعونا لدراستها والبحث فيها والعناية بها؟ إن المجتمعات التي لا تدهشها الطبيعة، ولا تتفاعل معها، ولا تبحث عن أسرارها، تعجز عن الدخول في السباق الحضاري. فهل مجتمعاتنا مع كل ما تنفقه على التعليم، تمتلك ذلك الشعور البحثي الوثيق بالطبيعة؟ هل تحولت الطبيعة إلى موضع بحث ونظر في مجتمعاتنا؟ أم لا زلنا بعيدين عن ذلك؟

• النظرة للعمل: «من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون». كيف ينظر المجتمع إلى العمل؟ عندما تعتقد المجتمعات أن الحياة سباق نحو الأفضل، ويصبح الإنسان فيها صانع ذاته ومجتمعه، ستكون فكرة الإتقان الأقصى، وتجاوز الإنسان لحدود الواجب إلى درجة الإحسان جزء من سلوكه وثقافته. قال الرسول عليه الصلاة والسلام: (إن الله يحب أحدكم إذا عمل عملا أن يتقنه).

المجتمعات تتفاوت في نظرتها لدور الإنسان في صناعة الحياة، وينعكس ذلك على تنشئتها واستقلالية أفرادها وشعورهم بالإمكان، فهل تكونت فكرة العمل، الإتقان، الإحسان والاستقلالية في الوعي الاجتماعي؟ هل يشعر إنسان مجتمعنا أنه قادر على التأثير على مصيره، ومصير مجتمعه والبشرية إذا جد واجتهد؟

• النظرة للوقت: قال عليه الصلاة والسلام: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». كيف ننظر للوقت؟ وكيف نتعامل معه؟ التراب، الإنسان والوقت [٣] عبارة عن مستلزمات الحضارة. التراب: رمز للموارد المتاحة في كل مجتمع، وهو مدخلاته العملية الحضارية. والإنسان بذكائه ومهاراته، يحول تلك الموارد إلى ثروة، مستفيدا من الوقت، وهو في سباق مع أمم الأرض على الزمن، حيث أن الأمم المتحضرة والمتقدمة تنظر للوقت على أنه ثروة، وقضية حياة أو موت كسباق بشري، فهل ذلك جزء من ثقافتنا؟

إن الزمن مرتبط بدقة التنفيذ وبحفظ الوعد والعهد، فهل أفلح التعليم في زراعة ذلك المفهوم في بيئاتنا؟ أم لا زال الوقت عبئا يحتاج إلى طريقة لإهداره؟ هل مؤسساتنا، وطرق عملنا ومواعيدنا تعكس شعورا بالزمن؟ أم لامبالاة؟ إن المجتمعات التي لا تحدث اختراقا في فكرة الزمن عاجزة عن التقدم.

• النظرة للآخرة: «اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار». التصورات الدينية السائدة تشكل أساسا كبيرا في بناء المجتمعات، فهل تصوراتنا الدينية توجه الناس إلى اعتبار الآخرة وسيلة للإحسان الأقصى في الدنيا؟ أو على النقيض من ذلك حيث توجههم إلى اعتبار الدنيا والآخرة مشروعين متضادين بشكل يُوَجه الناس على أن سبيل الوصول للنجاة في الآخرة هو إهمال الدنيا؟

إن التصورات الدينية عندما تكون على النقيض، وتدعو إلى العكس كالتزهيد في الدنيا، فلا

٣ مالك بن نبي بتصرف

غرابة أن يضعف حضور الإنسان في الفعل الحياتي لصالح شعور منقسم، فإن حضر الشخص في صناعة الحياة تجده يعاني من الشعور بالقصور والتقصير في حق الآخرة. ولا حل إلا في استيعاب التوازن من المنظور القرآني والسنة النبوية لفهم علاقة الآخرة بالإحسان في قضايا الحياة من صناعة، زراعة، تجارة، علم ومعرفة، وهذا أمر ضروري لأي تقدم في المجتمع وإلا باءت محاولات التقدم بالفشل؛ لذلك نجد الرسول عليه الصلاة والسلام يوَجِّه بأن العمل للدنيا عبادة متى استحضرت النية (إنما الأعمال بالنيات, وإنما لكل امرئ ما نوى).

•النظرة للمجتمع الداخلي: «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء». هل المساواة قائمة، والنظرة أفقية؟ هل مشروعنا الوطني جامع لكل أفراد المجتمع؟ هل ينظر الجميع إلى بعضهم البعض باعتبارهم أكفاء مستحقون للكرامة الوجودية، الاحترام، العدل والود، ذكورا/إناثا، باختلاف أعراقهم، ألوانهم، لغاتهم وثقافاتهم؟ أم أن النظرة هرمية بشكل يقود نحو سباق فرعوني حول السيادة؟

•النظرة للمجتمعات الأخرى: «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا». هل ننظر للبشر في المجتمعات الأخرى على أنهم مشروع تعارف، أو مشروع احتراب؟ على أنهم مجال منفعة، أو ضرر محقق؟ إن القرآن يجعل التنوع البشري ثروة للتعارف، فهل استقر ذلك في وعينا؟ أم أن ثقافتنا تقوم على الخوف والعداء للآخر المختلف؟

ماذا يحدث عند فقدان المجتمع كل هذه القيم؟

بالتأكيد سيفقد كرامته الوجودية وحريته، يفقد اتصاله بالطبيعة ودراستها، يفقد المنهج العلمي في البحث والنظر، يفقد معنى الحياة ودوره فيها، يفقد الوقت قيمته عنده، يتعلق نظره للماضي لا المستقبل، ويتحول الدين وسيلة لتنفيره من الإحسان في الدنيا، أو لنشر الفكر الخرافي والقصص الوهمية، وحينها أيضا ستعم الطبقية بين أطياف المجتمع، وستنتشر النظرة المعادية للمجتمعات الأخرى. فماذا يمكن أن يكون مصير هذا النوع من المجتمعات؟

قد يقول قائل، في كل ذلك للإسلام قول حسن، الآخرة جزاء على عمل تم في الدنيا، والناس كلهم لآدم في المشروع القرآني، سواسية كأسنان المشط، وقد حث الدين على العمل الصالح والكسب، وأشادت «سورة العصر» بأهمية الزمن، كما أن القرآن حث على طلب العلم والتفكر، والنظر في الكون والطبيعة، وحدثه عن التسخير، بل نجد أن الله قد كرم الإنسان حتى سجد له الملأ الأعلى عبر أمر من رب العالمين...

لكن حين يتوقف الحديث عند هذه الفقرة، نفقد الخط الناظم للحديث المنتج، فالسؤال ليس عن أحسن قراءة تقدمية للإسلام، بل عن القراءة السائدة في الواقع، كم تقترب من تلك النظرة

المتقدمة؟ وما نصيبنا من هذه التوجيهات في واقعنا؟ ألم يتم استبدالها بتصورات دينية زائفة ومحبطة؟ إن كان الإسلام هو كل ذلك النور - وهو كذلك - فقطعاً ما يمثله الواقع من تصورات – خصوصا على المنابر - هو شيء مختلف عن طبيعته، والتحدي الكبير هو: كيف نغرس المفاهيم والتصورات الصحيحة مكان تلك التصورات الزائفة؟ وكيف يتم محو الصورة المشوهة والسائدة اليوم من الطرح المتداول؟

قراءات متعددة...

إن النصوص المتنوعة في الدين قابلة للقراءة في اتجاهات متعددة بعدد أنفاس الخلائق، خاصة في تفسير الحياة وطبيعة الفعل فيها؛ لذلك لما أراد علي بن أبي طالب المحاججة مع الخوارج، بعث عبد الله بن عباس - رضي الله عنهم - وقال له: «لا تخاصمهم بالقرآن فإن القرآن حمال أوجه، ذو وجوه، تقول ويقولون». وهذا لا يمنع الاتفاق على أمهات المسائل: مثل الإيمان بإله واحد، المعاد، رسالة النبي، القرآن، التكاليف الواضحة، المحرمات الكبرى وعلى أمهات الأخلاق.

لكن مساحة صناعة الحياة واسعة وهنا تظهر التحديات، فنحن بحاجة أن ننتج عقلية تؤمن بأن الإنسان مستحق للحرية والكرامة لكونه إنسانا: فعله له تأثير في الكون. مسؤول عن أحسن العمل. الكون مسخر له؛ ليوظف علمه في اكتشاف أسراره، ووسيلته في كل ذلك الدليل، البرهان، التجربة والاختبار. وفي هذا السباق سنجد بأن الزمن سلاح ذو حدين: إما أن يكون له أو عليه؛ لذلك هو مسؤول عن احترام وقته ووقت الآخرين. والمجتمعات التي لا تقر مبدأ المساواة، ستؤسس للصراع والفرقة، وأن الدين دافع للعلم وللجودة في كل شؤون الحياة، وأن ينظر للمجتمعات البشرية بأنها فرصة للتعارف والتآلف وإقامة العدل الكوني وبسط الرحمة للعالمين. وبذلك يأتي دور النسق القرآني كأساس لإصلاح تلك المنظومات التي دمرتها مدرسة تجزئة القرآن واستدعائه مفرقا.

العمل الصالح بين حجمه في القرآن، وحجمه في الاستدعاءات اليوم:

إن عقول الملايين من المسلمين تستدعي العمل الصالح في أمثلة ضيقة: كالأيتام، مدارس تحفيظ القرآن الكريم، وربما المصحات والمشافي، وكأن العمل الصالح مقصور على ما يعرف بالعمل الخيري؛ لذلك تتوقف الأمثلة عند مستوى احتياجات العمل الخيري ومؤسساته، ولا تبسط الفكرة لاحتياجات الأمة الكبرى. وهنا تبدو الفجوة واسعة بين الصور التي يعرضها القرآن للعمل الصالح، وبين تلك الصور المجتزأة.

إن الإحسان الذي يتحدث عنه القرآن شامل لكل الأفعال، وليس مرجوا فيه العدل فقط الذي حده المساواة والقيام بالعمل على تمامه دون زيادة أو نقصان، بينما الإحسان: هو قدر زائد على العدل، هو أن تسير بالعمل قدما في درجات الإتقان. وصناعة الأمة القوية تحتاج أن ترتقي بكل

أعمالها لدرجة الإحسان، الذي يعتبر سباق بين البشر «أيكم أحسن عملا»، فلكل عمل هناك ما هو أجود منه إتقانا وإحسانا. والمؤمن أولى الناس بدخول هذا السباق؛ لأنه لا يريد النجاح في الدنيا فقط، بل يطمع إلى أعظم جائزة وهي الجنة.

الإيمان مقترن بعمل الصالحات، لكن أي نوع من الصالحات يتحدث القرآن الكريم عنه؟ وهل يريد القرآن من البشر عملا يملأ مساحات الدنيا؟ أم عمل عارض من قبيل ما يدور في أحاديثنا ومواعظنا؟ لقد ضرب الله لنا عدة أمثلة أخبرنا فيها عن صراط الذين أنعم عليهم، حتى لا يقول قائل إنه طريق غير واضح. ولنستعرض هذه النماذج القرآنية الممثلة للصراط المستقيم؛ لنتبين مدى قربنا أو بعدنا عنها وعن مساحات اشتغالها؟

نماذج عن الذين بين الله بهم مقصوده من العمل الصالح (صراط الذين أنعمت عليهم):

إن نماذج الذين أنعم الله عليهم كثيرة، أغلبها تشير إلى أن طرق إعمار الأرض متعددة الجوانب، وبها وغيرها نجد القرآن يدفع الإنسان المؤمن إلى قلب صناعة الحياة؛ لذلك لا نجده يضع نظما تتم بها الصناعة، الزراعة، ولا حتى السياسة والاقتصاد، فتلك متغيرات تابعة لكل عصر، ولكنه يضع أسسها القيمية، ويشير لنماذج اشتغال الإنسان الذي يريد إعمار الأرض والفوز في الآخرة بحيث تتكامل الصورة.

- فهذا أبو البشرية آدم عليه السلام يقدم لنا نموذج الإنسان في ضعفه وتوبته.
- ونوح عليه السلام يقدم نموذج الصبر على الدعوة وعلى عناد المعاندين مستخدما النجارة.
- أما سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ، فيقدم لنا صورة الإيمان عن طريق التفكر في آيات الله، الجدال بالحجة والبرهان، الدعوة للتوحيد والصبر على الأذى، بالإضافة إلى كونه رب الأسرة الكريم، الإمام العامل وصورة النبي الصديق.
- وهذا لوط عليه السلام يأمر بالإصلاح الاجتماعي الخلقي.
- ويوسف عليه السلام يقود الاقتصاد، فينقذ أهل مصر من سنين القحط بعلمه وفطنته.
- وشعيب عليه السلام يدعوا للإصلاح الاقتصادي، ومنع التطفيف في الكيل والميزان.
- أما سيدنا موسى عليه السلام فيقدم لنا صورة من يواجه الطغيان وينقذ المستضعفين.
- وهارون عليه السلام يعين أخاه في قيادة قومه.
- ومن جهة أخرى، نجد سيدنا داوود عليه السلام يصنع السابغات - الدروع العسكرية -.
- وسيدنا سليمان عليه السلام يدير مملكة لم يسبق وأن أسس مثلها بشر.
- وذو القرنين عليه السلام يبني السدود، والمقاولات العظيمة.

- أما مجتمعيا فنجد ذا الكفل عليه السلام يقيم العدل في قومه، ويكفله لهم.
- وزكريا عليه السلام يكفل اليتيمة مريم العذراء.
- وسيدنا عيسى المسيح عليه السلام يعالج المرضى.
- وأخيرا وليس آخرا، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام يعمل بالرعي والتجارة، ثم يبني أمة من العدم.

يطوف بنا القرآن مع الذين يأمرون بالقسط من الناس، مع النساء المؤمنات وهن ينصرن الحق، العمال في البحار، المزارعين، بالإضافة إلى الذين يدعون لموافقة أصحاب الحق، ومع من يمتلكون العلم كالذي نقل عرش ملكة سبأ.

كل هؤلاء تحققت فيهم الشروط الثلاثة، إيمان صادق، وعبادة خالصة، وفعل في الدنيا لإعمارها، وسار الفعل من الإصلاح العقدي والأخلاقي المتلازم، إلى الإصلاح السياسي، ثم الإصلاح الاقتصادي، فالصناعات العسكرية، إلى الصناعات الثقيلة، وبناء السدود، والزراعة... لم تترك فكرة «العمل الصالح أو الصراط المستقيم « جانبا إلا تناولته.

إن انتشال العقل المسلم من ظاهرة فصل الأبعاد الثلاثة: الإيمان والصلاة والإنفاق عن بعضها مهمة صعبة، خاصة وقد طال العهد بالإنسان المسلم، وهو يتلقى ذات الخطاب و ذات المعارف المجزأة، وملئت فيها العقول بصور وأحداث ونماذج بشرية تختلف عن النماذج القرآنية الشاملة، وحلَّت النماذج المنسحبة من الحياة من المتصوفة والعباد بديلا عن الصناعات الثقيلة، ومصلحوا الاقتصاد، السياسة، الزراعة، ومن يعملون في البحر... ومن هنا بدأ الانكسار، وأصبحت هذه النماذج المنسحبة من الحياة هي النماذج الاسترشادية، مما جعل هجر الدنيا دينا، والدعوة للإحسان فيها انحرافا، وأصبح الفرد المسلم الذي يجمع بين عمل الدنيا والآخرة في حالة قلق دائم، وشعور مقيم بأنه مخالف لمراد الشارع، وأن خلاصه الأخروي ليس مرهون بالإحسان الأقصى في الدنيا، ولكنه مرهون بكثرة العبادات الصرفة. إلى هنا تبينت لنا معضلة الأمة في تقزم تصوراتها.

وقد تناولنا حتى الآن أفكارا مهمة، رسمنا بها خارطة عامة عبر سورة الفاتحة، وجمعنا بين الآخرة والعبادة والدنيا عبر مقدمات سورة البقرة، وعرجنا على المفاتيح الثمانية ودورها في صلاح الوعي المنتج للتقدم، وعلى نوع العمل الصالح وعلاقته بإصلاح الدنيا عبر استعراض أعمال الأنبياء والصالحين. ولننظر الآن للنسق القرآني للتساكن والعمران البشري كيف يعمل؟

الفصل الخامس: النسق الكلي للعيش البشري

هل الدين عائق بين البشر؟

عندما ننظر إلى بلاد الإسلام، سنجد في بعضها احتقانات كبرى بين الطوائف، وبين كل طائفة على حدة، فضلا عن الاحتقانات بين أهل الأديان. في مثل هذه البلدان تنتشر أسئلة من جنس هل نسلّم على الآخر؟ هل يجوز أن نتودد إليه ونهديه؟ هل نعايده؟ هل نشتري منه؟ هل نبيع له؟ هل نمنحه مكانا لعبادته؟ هل ...هل؟ إن حل تلك الإشكاليات لا يتم باستدعاء النصوص المجتزأة من التاريخ أو السنة ولا حتى القرآن، بل بفهم النسق الحاكم لكل تلك الاستدعاءات.

نسق تدفق قيم العيش المشترك:

لو أردنا أن ننظر إلى القيم في شكل نسقي؛ لأمكننا تقسيمها لأربع مساحات: قيم العمق، قيم التساكن والعيش المشترك، قيم الدعوة والتواصل، وقيم الحرب. كل هذه القيم متداخلة بشكل يجعلها تؤثر وتتأثر ببعضها البعض حيث أن بينها علاقة جدلية – ديالكتيكية-، فعلى قيم العمق تقوم قيم التساكن والعيش المشترك، وعلى قيم التساكن وقيم العمق تقوم قضية التواصل والدعوة بين البشر، فإن إختلت قيم التساكن والتواصل؛ نشبت الحروب، وأصبح الناس باحثين عن قيم العمق لإرساء استقرار جديد، وعيش مشترك

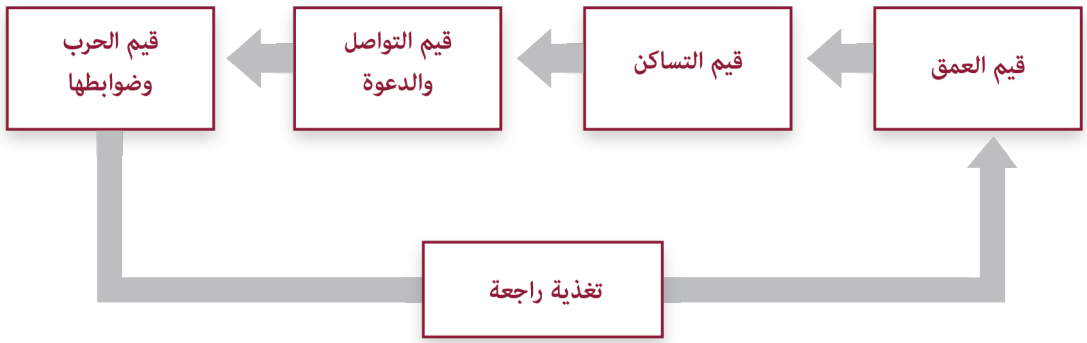

(نموذج ٥ / قيم العيش المشترك)

آمن، وتواصل حضاري، وهذا ما سنشرحه في السطور التالية:

الدول اليوم تريد مواجهة ظاهرة التطرف، وتريد وقف أولئك الشباب الذين تطلق عليهم «المغرر بهم»، الذين ينضمون لمسارات العنف. المشكلة أن هذه الدول لا تنتبه بأن وراء أولئك الشباب الكثير ممن يحملون ذات الأفكار بصيغ مختلفة! حدثني أخ عزيز بأن له ابن في الصف

الثالث إعدادي وكان يُدرِّسه مادة علم الاجتماع، يقول: وجدت الموضوع حول عصر التنوير في الغرب، ويتحدث عن كيف تقدمت أوربا... «فكنت سعيدا؛ ها نحن سنعطي الشباب درسا في شروط التقدم والحضارة! إلا أنني فوجئت بأن الدرس يبدأ بما أنجزه الغرب في سطور، لينتقل إلى كيفية استعمارهم للعالم الإسلامي، ويفصّل في بشاعات الاستعمار، ثم يركز على أنهم سبب تخلفنا، وأنهم المانع من تقدمنا، ولا سبيل إلى التقدم مع وجودهم... لقد كان جواب ابني مباشرا: أنا مقهور وغاضب! صدق أستاذ التربية الإسلامية، لا حل إلا بالجهاد. والمسلمون يجب عليهم الجهاد. قال الأب: هنا شعرت بالأزمة الحقيقية».

لقد ملأنا الشباب حماسا وعداء لمن ظلمنا، ولم نمنحهم مخرجا من تلك الأزمة؛ لذلك يسهل تجنيدهم بعد أن تم إعطاءهم كل تلك المقدمات. إننا –وبشكل مستمر - نعد المشهد للكارثة، ثم نسأل ونتساءل من الذي أحدثها؟ لم نخبرهم عن تجارب تلك الأمم التي خرجت من الاستعمار إلى الاستقلال ومنه للتنمية، لتصبح منافسا لمستعمريها. إننا لانشير لتلك الطرق الممكنة، بل نضع الشباب أمام نفق مغلق، ثم نتسائل لماذا يتطرفون؟

إن المعلومات والمعارف لبنَات تفكير، والمناهج هي طرق الاستفادة من تلك اللبنات، فإن أخطأنا في اختيار اللبنات (المعلومات) أو في طرق التدقيق فيها، أو تفسيرها، ووصفها؛ فإن البناء سينهار. إن بناءنا تهدّم ويوشك أن ينهار، وما زلنا نسير في ذات الطرق المسدودة، فلا نحن دققنا في اللبنات، ولا نحن بذلنا جهدا تقدميا في المناهج، فأين المخرج؟

إن الفرق بين ما نفهمه عن الإسلام وبين ما نمارسه في حياتنا فرق شاسع. إن الفجوة كبيرة بين فهم الإسلام داخل النسق القرآني وبين الذين يدعون لقتال كل البشرية، ويفكرون بفقه القرون الوسطى في صناعة الدولة، ويقتلون أقرب الناس إليهم بحجة الجهاد، ومن دون ردم هذه الفجوة ستضيع معالم الإسلام، وتختفي فكرة الرحمة، خصوصا بعد أن قرر البعض بأن كل آيات الرحمة منسوخة بآية السيف، والتي لا يعرف ما هي على وجه الدقة. المهم أنه لا رحمة في القرآن بحسب رأي هؤلاء، ولم يبقى في القرآن إلا السيف، وضرب الرقاب، والبدء من العدو القريب وهو المسلم؛ لذلك بين الدين الذي جاء به خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام الذي يَقبل من المرء الشهادتين مع ظاهر أعمال الإسلام، وبين اشتراطات كتب العقائد قديمها وحديثها فارق واضح، إنه فارق فكرة الإيمان عن فكرة العقيدة.

حيث أن وظيفة الإيمان تكمن في إدخال الناس في رحمة الله، أما وظيفة كتب العقائد فهي إخراج الناس بمختلف الحجج من دين الله. وهكذا تمزقت الأمة شيعا، وتقاتلت وسفكت دماء بعضها البعض؛ بسبب اعتقادها بأنها تحمي الدين بذلك، فولدت ما هو أسوء: أسوارعالية وقنابل موقوتة بين المؤمنين، فضلا عن غيرهم. ويبقى السؤال ما هو شكل البناء الذي يرسمه القرآن للمجتمع البشري؟ ولماذا أطلقنا عليه نسقا؟

يمكن القول إن النسق هو «كلٌّ» تتفاعل أجزاءه ويدعم بعضها بعضا، ليقوم بوظيفة معينة، وعند اختلال أي جزء منه سيؤثر على بقية الأجزاء، حيث أنه «كل» متكامل له مدخلات،

عمليـات، مخرجـات، ولـه نظـام تَحَكُم يسـمح لـه بالتعديـل والضبـط.

إن النسـق الاجتماعـي فـي القـرآن لـه مدخلاتـه التـي هـي احتياجـات البشـر كالعـدل، الحريـة، والكرامـة، وعملياتـه التـي هـي عبـارة عـن تفاعـلات الأفـكار الكبـرى وتراتيبيتهـا فـي المجتمـع المسـلم، ومخرجاتـه التـي يتولـد عنهـا عمـران الحيـاة واتسـاعها، أمـا نظـام التحكـم فيـه فهـو رضـى المجتمـع عن درجـة تحقـق احتياجاتهـم مـن العـدل والحريـة والكرامـة. إن أجـزاء النسـق ومقولاتـه تكمـل بعضهـا، وهـي لا تتناقـض بـل تشـكل كُلاً يسمى»نسـقاً»، والنسـق أو نظـام العيـش المشـترك بيـن البشـر هـو مرادنـا مـن كل مـا سـبق.

عـدم رؤيـة النسـق أو اكتشـافه تعنـي حـدوث انفصـام فـي الشـخصية الاجتماعيـة بيـن دعـاوى القيـم مـن ناحيـة وبيـن ممارسـات الواقـع مـن ناحيـة أخـرى. أمـا القيـم فـي سياق حديثنـا فهـي معاييـر حاكمـة نحـدد بهـا مـا هـو خيـر ومـا هـو شـر ليـس علـى المسـتوى الفـردي وان كان مهمـا، لكـن كيـف نحـدد بهـا وجهـة المجتمـع كوحـدة واحـدة ومـا يحكـم سـلوكه وقراراتـه واختياراتـه، وكلمـا تعقـد تطـور المجتمـع ازدادت الحاجـة للنظـر النسـقي.

إن النظـر للنسـق القيمـي يعنـي فهـم مشـروع الديـن فـي حيـاة الإنسـان، وعلاقة الأجـزاء ببعضهـا، ونسـبة كل منهـا لغيرهـا بالإضافـة إلـى حجـم كل منهـا داخـل النسـق الـذي هـو الضابـط لإشـكال النظـر الشـرعي وللتصـور العـام للدين.

<u>نظام العيش المشترك يتكون من أربعة أسئلة:</u>

مـا هـي التصـورات الحاكمـة للنسـق فـي العمـق عـن الإنسـان والحيـاة؟ مـا هـي مبـادئ العيـش المشـترك بيـن البشـر التـي تعكـس قيـم العمـق فـي النسـق؟ مـا هـي قواعـد التواصـل والدعـوة بيـن البشـر المختلفيـن فـي داخـل النسـق؟ وماهـي ضوابـط الحـرب إن قامـت، وكيـف تعـود المجتمعـات للسـلام؟

إن البشـرية بمجموعهـا تتطلـع لتحقيـق مطالـب كبـرى كالحريـة، الكرامـة، العـدل والعيـش الكريـم، فكيـف يُجيـب الديـن عنهـا فـي كتـاب الله عـز وجـل؟

<u>التصورات الحاكمة في العمق:</u>

فـي العمـق تأتـي أول القضايـا الكبـرى التـي تسـتند علـى مفهـوم الإيمـان بـالله واليـوم الآخـر والعمـل الصالـح الـذي تناولنـاه سـابقا، وفيهـا أن الديـن جـاء رحمـة للعالميـن؛ فمـا البسـملة والفاتحـة، ولا سـلام المؤمـن علـى غيـره مـن البشـر بقولـه «السـلام عليكـم ورحمـة الله وبركاتـه» بعبـث! بـل هـي أمـر مقصـود، فبسـم الله الرحمـن الرحيـم لهـا مدلولهـا، والحمـد لله رب العالميـن الرحمـن الرحيـم لهـا دلالتهـا، والسـلام عليكـم ورحمـة الله وبركاتـه تتميـز بعمقهـا، ومـا وصـف مهمـة الرسـول بأنهـا رحمـة للعالميـن بقـول عابـث، فعلـى بسـاط الرحمـة تتحـرك بقيـة المعانـي القرآنيـة، حيـث أن الرحمـة عطـاء وليسـت أخـذ، وهـي عطـف وليسـت قسـوة؛ لذلـك تتجسـد فـي بنـاء قيمـي واسـع.

لقد علِمنا من لحظة الخلق أن الإنسان مكرم، مُنح ملكة العلم، وأُعطي حرية الاختيار، وعليه تترتب المسؤولية عن القرار، كل ذلك في الملأ الأعلى، وحِرمانه من أي هذه الخصائص الوجودية هو اعتداء على كرامته وعلى الإرادة الإلهية في خلقه.

ومن ثم أُبلغ هذا الإنسان أن له إلهاً يعتني بكل الموجودات بموجب الرحمة التي هي سابغة لتشمل كل الخلق، وكل البشر كافرهم ومؤمنهم، وأُبلغ أن سبب إرسال الرسل والكتب هو قيام الناس بالقسط «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط»، وأن مهمة الرسول تبليغ الرحمة للعالمين، «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» وإقامة القسط بينهم، وأن مهمة البشر مجتمعين هي إعمار الأرض بما يقتضيه من وقف الفساد ووقف سفك الدماء بينهم «وهو الذي خلقكم منها واستعمركم فيها»، إضافة إلى أن الله خلق الناس مختلفين «ولو شاء ربك لجعل النس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم»، وحتى لا يلتبس الأمر على المسلم، أخبره القرآن أنه مهما حرص فأغلب الناس لن يكونوا مؤمنين»وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين»، وأن البشر المختلفين في أعراقهم ولغاتهم مطلوب منهم التعارف، «وخلقناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» وتبادل المنافع والتعاون على قضية العدل «ليقوم الناس بالقسط»، وقرر لهم أن من يعمل سوءاً يُجز به «ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوء يجزى به».

إن قوانين الله في الكون لا مبدل لها، وأن سباق البشرية يكون بأحسن العمل، وأن الكافر والمؤمن كلاهما ينال العطاء في الدنيا ولا يبخس عمله، وأن أساس عهد المؤمن مع الله إقامة تلك الأسس واقعا في حياة البشر، وأن الذكر والأنثى من نفس واحدة، وأنهما مجتمعين لهم مهمة اجتماعية مشتركة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لصيانة النظام، وإن مطلب الزينة والجمال مطلب رباني.

كيف سيحقق القرآن معادلته في المجتمع المنشود؟ كيف سيتعايش المختلفون؟ كيف سينسقون حركتهم لعمران الأرض ويتوقف الفساد وسفك الدماء؟ وكيف ستؤثر هذه الأسس على قيم العيش البشري المشترك؟ وأخيرا: ما هي القيم التي تعكس الاتساق مع قيم العمق ومطالبه؟

قيم التساكن والعيش المشترك:

القرآن يطرح نتائج كل مقررات العمق بالتمييز التام بين مستوى حالة السلم وحالة الحرب، حيث أن حالة السلم هي الأساس بين البشر بينما حالة الحرب هي الاستثناء. إن البشر يعيشون بالتراضي والتعاقد، بالإضافة إلى أن عليهم احترام العقود والتعهدات مع الجميع على اختلاف مللهم ونحلهم، فقواعد العيش المشترك ينظمها التعاقد والعرف، وهذا واضح في العقل الإسلامي بين المؤمنين، ولكن كيف بعلاقتهم بغير المؤمنين بالإسلام؟ يقول الله عز وجل:

1. «لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ».

2. «إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

إن العيش المشترك والذي هو الأصل الذي تقوم عليه الحياة ينبني على ذراعين ممدوتين لكل البشر، وهما البر والقسط، فما هو «البر» حتى تستبين الصورة؟ ولماذا قدم على القسط؟

البر هو التواصل بالمعروف.

بر المعروف أنواع: معروف القول كطيب الكلام، حسن المنطق، والتودد بجميل القول، وهذا يبعث عليه حسن الخلق، ورقة الطبع. ومعروف العمل كالعون في النائبات بالمال واليد والجهد، وهو يبني المجتمعات. إن المجتمعات البشرية تحتاج إلى عنصر البر وحسن الخلق؛ حيث أن طرق التعامل بين الإنسان وأخيه الإنسان هي ما يجعل حياة الناس أكثر فاعلية وإنسانية، فتستحق العيش. أليس الناس لا ينسون تجاربهم مع الآخرين حينما يزورون بلد ما؟ خيرا كان أو شرا؟ إن البر عمل صالح: يؤثر في النفس ويقرب البعيد، فكم يؤثر الخلق الحسن في معاملات الناس، إذ شهدت العديد من المناطق عبر العالم تنورها بالدين الإسلامي و تعلقها بتعاليمه بسبب حسن الخلق والمعاملة.

إن قضية العدل والمساواة بين الخلق هي أهم ملفات السلم الاجتماعي، والقرآن يطرح البر قبل القسط (أن تبروهم وتقسطوا إليهم)، لأن حياة البشر في عمومها ليست محاكم وقضايا، بل تجاور، وبيع وشراء، ومواساة في البأساء والضراء، وفي تلك المساحات الواسعة من التساكن البشري تسكن قضية البر، وتحميها عند النزاع قضية القسط.

إن البعض يطرح إسلاما ميكانيكيا خاليا من الروح، حيث يريد بناء علاقة مع الآخرين لا تسكنها مشاعر الود ولا البر، ومبنية على العدل القانوني، الأمر الذي كان نتاجا لصراعات بين البشر، لكن ما شرعه القرآن يحث على وضوح اتساق قيم التساكن مع قيم العمق بلا تناقض أو اختلاف، فبرغم اختلاف البشر إلا أنهم يسعهم العيش تحت مبدأين اساسين: البر والقسط، وبالتالي تتحقق كرامتهم الوجودية وعبر التعاقد والتراضي والوفاء بالعهود، هكذا إذن تستقيم الحياة وتنضبط ويتم إعمار الأرض ووقف الفساد وسفك الدماء.

<u>قيم التواصل والدعوة:</u>

عندما يعيش البشر مع اختلاف في الأديان والأفكار؛ تدور بينهم حوارات كثيرة، حيث يرغب الغالبية في إقناع بعضهم البعض بما يعتقدوه ويروه. وفي أعلى درجات هذه الحوارات يأتي حوار أهل الأديان، فما هو طبيعة هذا الحوار في القرآن؟ وكيف وجَّه الله رسوله لإدارته والتفاعل معه؟

ذكر الله عز وجل أربع آفات تعتري الدعاة من مختلف الأديان والملل، في الوقت نفسه الذي تهدد السلم الاجتماعي. يقول الله:

1- «فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر".
2- «وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد».
3- «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ۗ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا»
4- «وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ".

السيطرة، التجبر، دعوى الحفظ، والوكالة هي أمهات المشاكل عند الدعاة، حيث أنها تصب في حرمان الإنسان من حق حرية الاختيار الذي هو أصل التكليف، وأصل فكرة الثواب والعقاب «ولو شاء الله ما أشركوا» هذه الآية تقرر أن الله أعطاهم حرية الاختيار، ولو شاء سبحانه وتعالى سلبه منهم لفعل ذلك في البدء.

وعلى ذلك فالتحكم في قراراتهم وإجبارهم ليس مشروعا ربانيا، وعلى المبلغ عن الله أن يعلم ذلك؛ لذلك يقول القرآن للرسول والدعاة من بعده «وما على الرسول إلا البلاغ»، وعندما يعي الدعاة من مختلف الملل والنحل هذه الحقائق سيصبح طريق الدعوة مفتوحا والحوار البشري ممتدا، وهنا تأتي توجيهات القرآن الكبرى للدعاة المؤمنين.

1/ <u>التنزل لمستوى المخاطبين بدون دعوى استعلاء</u>: «إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين».

2/ <u>الاحتكام إلى الدليل والبرهان</u>: «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين».

3/ <u>استحضار الحكمة واتباع الموعظة الحسنة</u>: «وادعوا إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة».

4/ <u>قاعدة قبول النتيجة</u>: «لكم دينكم ولي دين».

5/ <u>فإن انزلق الحوار للمسابة وجب الخروج منه للمحافظة على السلم الاجتماعي</u>: «ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم وأعرض عن الجاهلين».

تخيل لو أن الدين الذي يقرر في عمقه كرامة الإنسان وحريته، ويطالبه في قواعد التساكن بالبر والقسط ثم جاء في مساحة الدعوة ليسمح بإكراه الإنسان وتقييده. يقينا سيختل النسق، ولكنه من رب العالمين «ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيرا»، وهذا هو المستوى الثالث الذي يزيد الموضوع انضباطا. فماذا عن المستوى الرابع –الحرب-؟

<u>ضوابط الحرب وقيمها:</u>

ماذا لو انزلق المجتمع إلى أتون الحرب؟ وما هو موقف الإسلام من هذه المساحة؟ وما

علاقتها بالمساحات الثلاث السابقة؟ وكيف عبر عنها القرآن؟

أولا: التدافع بين البشر مطّرد، والحرب شكل من أشكال التدافع:

«ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض».

ثانيا: أفضل وسائل وقفها: هوالاستعداد الأقصى لحالة الحرب؛ مما سيؤدي إلى اقتناع الخصم بعدم المجازفة بإعلانها:

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم».

ثالثا: الحرب مكروهة عند الله:

«كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله».

رابعا: النفس البشرية تكره الحرب:

«كتب عليكم القتال وهو كره لكم».

رابعا: القتال للدفاع عن النفس مشروع:

«أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير».

خامسا: العدوان يصد بمثله:

«من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم».

سادسا: إذا اقتنع الخصم بخطأ مسار الحرب؛ عاد الأمر للسلم:

«وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله».

وهكذا نجد أن مفاهيم الحرب في الإسلام تتناسق مع بنية العمق، وبنية التساكن البشري وبين الدعوة، ومن هنا نفهم لماذا أصرت مدرسة الحرب على فكرة النسخ الموسع وقالت بأن آية السيف المُختلف في تعيينها نسخت آيات الرحمة، فلا يمكن العبور لفكرة الحرب المفتوحة على العالمين إلا عبر هدم النسق القرآني.

حيث أن النسق مكون من القيم، ولتقريب الصورة فالقيم موجهات سلوكية، وسأشبهها بظرف مغلق وعليه إسم القيمة على سبيل المثال: العدل، وعقل الإنسان أشبه بالمكتبة التي بها رفوف، وظرف قيمة العدل موضوع على أعلى هذه الرفوف دلالة على قيمته العالية، ووظيفته توجيه السلوك الخارجي وضبط الأحكام، ولكن داخل الظرف توجد معلومات وتوجيهات محددة متعلقة بنطاق الأحكام التي تشملها القيمة في ذهن هذا الشخص وبالتالي فنطاق استخدام القيمة

موجود في قالب داخل الظرف وسنسمي هذا القالب الذي في الظرف بالمفهوم لأننا هنا وبغرض البحث سنعتبر أن المفاهيم هي قوالب مرجعية.

هذه القوالب حينما تكون غنية وكبيرة تنعكس على الخطاب والممارسة والقرار، فلو أن ثلاثة أشخاص - كل منهم - حمل قيمة العدل كقيمة كبرى في أعلى رفوف عقله وكان أحدهم من بيئة عربية مسلمة، والآخر غربي، والثالث اشتراكي؛ سنجد محتواها عند الغربي بشكل قد يستلزم ديموقراطية النظام السياسي، والمساواة الكاملة أمام القانون، وعند العربي المسلم قد تعني فقط المساواة أمام القانون، بينما عند الاشتراكي قد تظهر وكأنها الديموقراطية الشعبية، وحكم طبقات الشعب العاملة. إن اشتراكهم في (القيمة الجذر) لا يعني أن مفهوم القيمة متحد، حيث أن مفهوم القيمة يختلف عن ذاتها، وقد يصيبها تشوه من حيث مكانتها، وجودها، عدمها، بل قد يصيب التشوه مفهومها في الذهن.

إن المفاهيم تلعب دورا محوريا داخل النسق؛ فهي لبناته ومكوناته الأولية التي يقيس ويشير اليها خصوصا عندما يعبر عن نفسه، فعندما يقول الخطيب: علينا بالعمل الصالح، بالإحسان، بالعبادة او بطلب العلم والاتقان فيه فهو يشير - في كل الأحوال - إلى قالب ما في ذهنه، مكون من مصاديق تلك الفكرة في الواقع الخارجي، وبالتالي: حينما يضرب هذه الأمثلة هو يعبر عن سعة أوضيق ذلك المفهوم، فإن ضاقت مساحتها - قزمها - انخفض أداءه تبعا لها، وعندما ينخفض سقف القيمة ومدلولها، ستتغير ممارسة الإنسان الخارجية وعطاءاته.

النسق وحده دون المفاهيم الكبرى غير كاف؛ لأنه إذا اختلت المفاهيم الكبرى ولم تعد تعني مدلولاتها المنتجة، سيكون فعلها في الواقع مساو لما وضعت له. وبإحكام فهم النسق القرآني القيمي مع مفاهيمه الكبرى سنتمكن من ضبط سائر فروع المعرفة الإسلامية وعلى رأسها الفقه والفتوى. على سبيل المثال: عندما تتقرر قاعدة الكرامة الإنسانية الوجودية في عمق الفهم الإسلامي القيمي، وتتحول لمبدأ حاكم لكل ما هو إسلامي من الأقوال والأفعال، ستكون آثار هذا التقرير كبيرة، بل وضابطة منعكسة على فكرة التساكن البشري، العيش المشترك، الفتاوى، القوانين، الإجراءات، الأخلاق العامة، فضاء الدعوة وحتى حالات الحرب والسلم.

إن إصلاح أي جزء من النسق سيؤثر على البقية أيضا، وتضخم أي جزء من النسق عن حجمه النسبي - داخل النسق - قد يوقفه عن العمل، كما أن تضاؤله أو غيابه سيفعل ذات الأثر.

القيمة قادرة على اختراق كل الأبنية، وقادرة على تغيير كل المستويات التي تليها وهذا ما يفعله النسق، والخلل في أي جزء من أجزائها يؤثر على بقية النسق، وقس على ذلك سائر القيم.

الفصل السادس: نموذج الدوائر الثلاث

ميزنا فيما سبق بين حالة السلم وحالة الحرب، وهذا تمييز ضروري؛ لأن مقررات كل من هاتين الدائرتين الكبيرتين مختلفة؛ فحالة السلم أصل وحالة الحرب استثناء، ولكن لننظر لبعض الأمور المشتبكة في العقل المسلم.

نموذج الدوائر الثلاث المشتبكة:

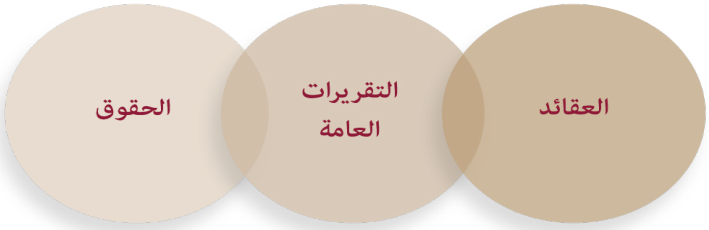

(نموذج ٦ / الدوائر المشتبكة)

أحد الشباب غاضبا: أتريدوننا أن نواد من حاد الله ورسوله؟ أتريدوننا أن نوالي أهل الكتاب؟ أتريدوننا أن نلين لهم وهم يكفرون بالله؟ ألم يقل الله: «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة»،؟ كيف نتلطف بهم وهم يكيدون لنا؟ ألم تسمع قول الله عز وجل «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود»؟ ألا تعلم أن اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض؟ مالكم كيف تحكمون؟

هذا القول ليس غريبا ولم يعد شيئا استثنائيا في واقعنا، بل هو فكر منتشر تغذيه آلاف المنابر والمناهج، وأصبح يجري مجرى المُسلّمات، ولا تُجدي فيه مقولات من مثل قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»، ولم تعد مُجمل القصص والوصايا بأهل الذمة حاضرة في الوجدان بما يكفل ضمان حقوقهم ، لأنها طُمست بالاستدعاء العشوائي للنصوص المجتزأة.

هل من سبيل لفهم آخر للنص القرآني يزيل مَواطن اللبس ويجعل القول متسقا؟

القرآن الكريم نزل محمّلا بحوار اجتماعي واسع، مع وقائع وحوادث مختلفة فعالج تلك الحوادث في سياقاتها التي كانت ظاهرة للمخاطبين فلم تلتبس مقرراته، ولكن مع مرور الزمن غابت السياقات، وبقيت النصوص، فاقتضى استدعاؤها كمنهجا يزيل اللبس، ويبقي التوازن الداخلي في الفهم. وبذلك سنقسم تقريرات القرآن على سبيل النفع لا الحصر في ثلاث دوائر مهمة - لضرورة التفريق بينها في سياق حياة المؤمن-: أولها/ نصوص وردت في تقريرات الاعتقاد، وثانيها/ وردت في تقريرات الحقائق العامة، وأما الثالثة/ فهي نصوص وردت في

تقريرات الحقوق. وعند دراستها للتفريق بين الدوائر سنتمكن من تقليل الشطط والانحراف الذي يضرب منظومة التساكن الكبرى التي أشرنا لها في الفصل الخامس.

دائرة الاعتقاد: سنجدها تحمل بطبيعتها المفاصلة والبيان، ولكن عند جمع نصوصها بعضها إلى بعض، سنتجاوز كثير من المزالق، حيث أننا سنجد تقريرات كبرى في هذه الدائرة، مثل:

«إن الدين عند الله الإسلام»:

الدين في البيان القرآني بتمامه هو الإسلام لا غير، لكن أليس هذا هو قول أصحاب كل ملة، وتصورهم عن دينهم؟

«لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة»:

من قال بالتثليث، فقد ترك التوحيد، وهو بذلك كافر، لكن أليس من ترك معتقد أي قوم هو كافر أيضا بمقولاتهم؟ وذلك يصدق على كل ملة.

هنا لنا أن نسأل ماذا يترتب على هذا التقرير سواءا في دائرة الاعتقاد أو في بقية الدوائر؟

«لكم دينكم ولي دين»:

- الرضى أمر خاضع للقلب صعب المنال، فما من بشر إلا ويتمنى أن يكون الناس على ما يعتقد ويهوى.
- القبول أمر ظاهر، وهو أيضا سلوك خارجي، فبالرغم من عدم الرضى القلبي الكامل، إلا أن البشر يوطنون أنفسهم على العيش المشترك رغم عدم التوافق.

كما سنجد أن القرآن يؤخر الحسم في مسائل الاعتقاد بين المختلفين إلى يوم الحساب:

«ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فهي تختلفون».

«إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم فيما كنتم فيه تختلفون».

إن الحساب على الكفر أخروي، والبيان الذي ينهي الخلاف أخروي أيضا، والبشر يعيشون بما يظنون أنه الحق، وعلى الرغم من اختلاف معتقدات الناس، إلا أنه يسعهم العيش بمبدأ القبول، وهكذا تسير حياة البشر، فالرضى متعذر، والاختلاف سنة، ولا حل إلا عبر تسيير الحياة بمبدأ القبول.

دائرة التقريرات العامة: تتضح من خلال وسطيتها التي تأتي لبيان أمور للتفكر والتأمل

فـي لحظـات ضعـف الطبيعـة الإنسـانية، ولننظـر إلـى أمثلتهـا بـدون اسـتقصاء:

عن النفس الإنسانية:

- «إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى».
- «وأُحضرت الأنفس الشح».

عن الصحابة:

- «منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة».
- «إذ تصعدون ولا تلوون والرسول يدعوكم في أخراكم».
- «وفيكم سماعون لهم».

عن الرسول:

- «لم تُحرم ما أحل الله لك؟».
- «تبتغي مرضاة أزواجك!».
- «تخشى الناس والله أحق ان تخشاه».

عن اهل الكتاب:

- «لتجـدن أشـد النـاس عـداوة للذيـن آمنـوا اليهـود والذيـن أشـركوا ولتجدن أقربهـم مـودة للذيـن آمنـوا الذيـن قالـوا إنـا نصـارى».
- «اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض».

كل مـا سـبق هـي أمثلـة علـى مقـررات القـرآن فـي سـياقات بعينهـا، ولغـرض محـدد أراده القـرآن، لكـن مـاذا سـتكون مترتبـات ذلـك علـى دائـرة الحقـوق؟ هـل تعنـي الخصومـة مـع الإنسـان، ومـع الرسـول ومـع الصحابـة، ومـع أهـل الكتـاب؟ وهـل سـتحرمهم مـن حقوقهـم؟ هـذا مـا سنكتشـفه فـي مسـاحة الحقـوق.

هـا نحـن نصـل إلـى مربـط الفـرس، حيـث سـنجيب علـى مـاذا ينبنـي علـى تقريـرات الاعتقـاد وتقريـرات الحقائـق العامـة؟ وهـل سـتؤثر فـي دائـرة الحقـوق؟

مـن الواضـح أن حـق الإنسـان محفـوظ ومكفـول علـى الرغـم مـن تقريـرات القـرآن عـن طبائعـه – والـواردة فـي الأمثلـة السـابقة - فـحقـوق الصحابـة محفوظـة، علـى الرغـم مـن نقـد القـرآن لسـلوكهم فـي بعـض أحوالهـم، وحـق الرسـول محفـوظ علـى الرغـم مـن عتـاب القـرآن لـه، وعمـوم حقـوق

المسلمين معروفة، لكن ما هي حقوق غير المسلمين في حالة السلم؟

يقول الله عز وجل: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين».

من الآية يتضح لنا تفريق واضح بين مساحة الاعتقاد، والتقريرات العامة، والحقوق، كما أن هناك تفريق جلي بين مساحة السلم، ومساحة الحرب، فهل استقر هذا المعنى في الأذهان؟ وهل يؤثر غيابه على تصرفات وتصورات الشباب المسلم اليوم؟

الخلل يأتي عندما تُستخدم آيات العقائد لضرب دائرة الحقوق، أو حينما تنسحب دائرة المقررات العامة على مساحة الحقوق، وكم من استنتاج بناه صاحبه على اختلاط المساحات في ذهنه. فعلى سبيل المثال: موضوع الولاء والبراء الذي تستخدمه مدرسة الحرب، هناك من فهمها على إشاعة القطيعة مع غير المسلم، وبذلك ستقضي على صورة البر والقسط التي تكلم عنها القرآن.

مصطلح الولاء يدل على المحبة والنصرة، ومصطلح البراء يعني المنابذة والخذلان. السؤال هنا: هل يتناقض القرآن فيأمر بالبر والقسط في موضع، ثم يعود ليأمر بالقطيعة والكراهية؟

مراجعة الآيات التي وردت فيها ألفاظ الولاء والبراء:

الآية ٢٣ من سورة التوبة: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء» هذه الآية تتحدث عن أفراد من المسلمين لا زالوا مقيمين بين أظهر المشركين في مكة وتدعوهم إلى مفارقتهم أو هي تنبيه لبعض أهل يثرب الذين لا زالوا على علاقة بالمشركين - لقرابة أو نسب – لكي لا يمرروا أخبار المسلمين إلى معسكر الكفر.

الآية ٤ من سورة الممتحنة: «لقد كان لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدى بيننا وبينكم العداوة والبغضاء حتى تؤمنوا بالله وحده»، وسورة الممتحنة تبدأ بقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق تسرون إليهم بالمودة» الممتحنة» ١ "، وأيضا الآية «٤» من نفس السورة: «لقد كانت لكم أسوة في إبراهيم والذين معه» لكن ماذا يأتي بعدها في الآيات ٧و ٨: «عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»(٨).

هكذا انطبق النسق على الآيات وهكذا ساعد سياقها القرآني في تفسير معناها دون عناء.

الخاتمة:

وفي خاتمة قولنا يمكن الإشارة إلى أن التحول الاجتماعي الإيجابي في المنطقة مشتبك مع نمط التدين المغلوط الذي ولّد بسبب أفهام الناس التي تغتال الدين باستمرار؛ وذلك لثلاثة أسباب: غياب النسق، تشوه المفاهيم، وتداخل دائرة الاعتقاد في العقل بدائرة التقريرات العامة على دائرة الحقوق.

وبدون النظرة النسقية لفهمنا للدين، ستتصادم أجزاء النظام بسبب الاستدعاءات الجزئية، وبدون استعادة المفاهيم لمعانيها القرآنية وقامتها الكلية، لن ينجح مشروع الدين في حياة البشر، وإذا استمر التداخل بين دوائر التصور الثلاث في العقل المسلم، لن يمكن إقامة العدل والكرامة.

وكخلاصات كبرى: لا يمكن إنتاج مجتمعات سوية دون تصور عميق لنظام قيمي ضابط الذي هو نسق تتكامل أجزاءه:

•قبول الإيمان يبدأ من سلامة الضمير الذي هو قبول الحق إذا استبان، وسلامة المنهج بترتيب العقل وتنظيم عمله.

•فهم الدين مرهون بإدراك مركزية الرحمة التي هي العفو والعطاء لكل العالمين، والإنسان حر في اختياراته ومسؤول أمام الله عن إيمانه أو كفره فلا وصاية عليه من بشر، سواء بدعوى (الحفظ او بدعوى الوكالة)، ولا إكراه عليه عبر السيطرة أو عبر الإجبار، وعليه أن يتقبل وجود المختلف دينا وعرقا ولسانا، ويتعايش معهم عبر البر والقسط.

• البشر مسؤولون عن إعمار الأرض عبر وقف سفك الدماء والفساد والقيام بأحسن العمل، من خلال وجود «الذين يأمرون بالقسط من الناس».

•الدين لاتكتمل فاعليته إلا بترابط ثلاثة عناصر، إيمان (دافع)، عبادة منتجة لغاياتها كالذكر، البعد عن الفحشاء والمنكر، والتزام التقوى الحارسة لكل عمل، وإنفاق في الأرض لإعمارها بكل ما رزق الإنسان من عقل ومهارة وجهد ومال.

•المجتمع القوي هو وليد البر، القسط، التعاقد، الوفاء بالعهود والعمل الصالح الشامل لكل أوجه الحياة.

•والنتيجة بعد ذلك فلاح الدنيا وفلاح الآخرة «اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة».

(نموذج ٧ / النسق القرآني)